روائع المسرح العالمى

٥٦

المسافر بلا متاع

تأليف : جان انوى

ترجمة وتقديم : الدكتور أنور لوقا

مراجعة : محمد كمال فايد

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

المسافر بلا متـــاع

مسرحية وجودية

بقلم : الدكتور أنور لوقا
أستاذ الأدب الفرنسى المساعد بكلية عين شمس

— ١ —

وثب اسم « جان أنوى Jean Anouilh » ، منذ نهاية الحرب العالمية الأخيرة ، الى المكان الأول بين كتاب المسرح الفرنسى المعاصر . تبوأ — على وجه التحديد — مرتبة الصدارة التى خلت بوفاة الأديب الكبير « جـــان چـيرودو Jean Giraudoux » سنة ١٩٤٤ . وما زال يحتل هذه المنزلة بجدارة وان اختلف اتجاهه عن اتجاه سلفه .

ويعترف بامتياز « جان أنوى » الأدباء والنقاد والجمهور على السواء ، لا لغزارة انتاجه فحسب — وان يكن ألف حتى اليوم أكثر من عشرين مسرحية هامة — بل لبراعته الفائقة فى التعبير المسرحى هازلا وجادا ، وتمكنه من تطويع أدوات هذا الفن لأغراضه فى خلق شخصيات معينة ، شخصيات نافرة ، شديدة الحنين الى عالم النقاء والبراءة والحق والخير ، متفجرة السخط على أوضاع الواقع الحالى القائمة على الاثم والرذيلة

والنفاق ، حتى ليحرك صوته الانسانى النفاذ مشاعر النظارة الى أقصى درجات التأثر . ان دور المسارح تدوى فى كل موسم بصيحات أبطاله — أبطاله القدماء الذين يحب الناس استعادة قصصهم ومواقفهم وأقوالهم الصريحة المبلورة ، وأبطاله الجدد الذين يلحقون بهذا الموكب الحاشد عاما بعد عام . ذلك أن قريحة « جان أنوى » صادقة الخصب ، لم تنضب رغم ما بدا حينا من ضعف تأليفه — لا سيما بعد أن سقطت سنة ١٩٥٥ مسرحيته « أورنيفل أو تيار الهواء » — فانه لم يلبث حتى أثبت أنه خليق بالاتقان ، طويل الباع دائما ، لا يتخلف اذا صح عزمه عن اتحاف المسرح بآيات فنية رائعة ، نذكر من بينها المسرحية القوية « بيكيت أو شرف الله » التى ظهرت سنة ١٩٥٩ .

لم يعد تقدير أدب « أنوى » اذن موضع نزاع . لقد دخلت الآن الى فصول الكتب المدرسية صفحات من نصوص له أصبحت مأثورة ، وأصبح الطلبة فى جيلنا يعكفون على تأملها وتذوقها وتحليلها . وترجمت أعماله الكبرى الى كثير من اللغات الحية ، فانطلقت تتجاوب فى آفاق الانسانية أصداء رسالته المؤثرة . وقد يعرف قراء العربية اسم « جان أنوى » من مقالات وأخبار نشرتها عنه بعض مجلاتنا الأدبية ، ولعل

منهم من استمع الى أمثلة من فنه قدمتها اذاعة القاهرة ضمن فقرات « البرنامج الثانى » .

على أن هذا الكاتب الشهير — وما أحقه بالشهرة ! — يحرص حرصا غريبا على أن يكتم قصة حياته عن النـاس . ولم يفلح من استجوبه من الصحفيين أو من تخصص فى الكتابة عنه من الباحثين فى أن يحصل على أكثر من الوقائع التالية لتسجيل سيرته :

ولد « چان أنوى » فى مدينة بوردو بفرنسا ، يوم ٢٣ يونيو سنة ١٩١٠ . وهو ينتمى الى عائلة متواضعة ، اذ كان أبوه خياطا ، وكانت أمه تشتغل بعزف « الكمنجة » . ولهذه النشأة يرجع دون شك ميل « أنوى » الى تصوير جور الفقر ووطأته على نفوس الفقراء فى سلسلة من مسرحياته . وانتقل « چان » الى باريس عنـدما بلغ الثامنة من عمره ، فأتم دراسـته الابتدائية بمدرسة « كولبير » ، ثم واصل دراسته الثانوية بـ « كوليج شاپتال » — وهما من خير مدارس العاصـمة الفرنسية . والتحق بعد ذلك بكلية الحقوق ، الا أنه اضطر الى أن يتركها ، بعد عام ونصف عام ، ليكسب عيشه بالعمل فى احدى دور الاعلان .

ولم يأسف « چان أنوى » لقطع دراسته الجامعية على

هذا النحو ، بل وجد فى تدبيج الاعلانات أسلوبا طريفا ، لونا خاصا من البلاغة أعجبه ، وعلمه كيف يتوخى فى القول دقة اللفظ وكيف يحتال على المعانى . أليس تركيب الحوار المسرحى — وهو فن يراوده ويجتذبه — مبنيا على ترتيب العبارات والكلمات التى ينطق بها كل شخص فى لحظة محددة ؟ لقد بدأ هذا الفتى المغمور يكتب اذ ذاك للمسرح ، هاويا . ولم تتجاوز أصداء تجاربه الأولى على كل حال نطاق أصدقائه الضيق .

وكان قد أولع بمتابعة ما تقدمه دور التمثيل منذ سنة ١٩٢٥ — أى قبل أن يتم الخامسة عشرة من عمره . ومضى يقرأ بشغف نصوص مسرحيات « برنارد شو » و « كلوديل » و « پيراندييللو » . وفى ربيع ١٩٢٨ ، أتيح له أن يشهد الفنان العبقرى « لوى جوڤيه Louis Jouvet » وهو يمثل مسرحية « سيجفريد Siegfried » — التى ألفها « جيرودو » — فمسته هذه المسرحية مسا ، وملكت عليه مشاعره ، نصا واخراجا وأداء . واذا هو قد حفظها عن ظهر قلب ، واذا هو يرددها بنفس القاء « جوڤيه » الذى لم يبرح سمعه . وظل مسحورا ، مجذوبا الى أسرار المسرح التى اجتلاها فى ذلك الأسلوب الشعرى الأليف الذى يشف عن أعماق النفوس .

وواتته الفرصة بعد عامين ليعرف « لوى چوڤيه » ، بل ليتصل به اتصالا مباشرا ، فقد اشتغل « سكرتيرا » له سنة ١٩٣٠ . وسعد الفتى الأديب بالانتقال الى حضن المسرح ، وبفرض هوايته الخاصة على نشاطه العام . واستغرق المسرح أيامه ولياليه . هناك كتب نص « السمور الأبيض » . وكانت هذه المسرحية أول عمل لجان أنوى يظهر على الملأ ، وأول نجاح يصادفه . أخرجتها فرقة « پيير فرينى Pierre Fresnay » سنة ١٩٣٢ ، فعرفت جمهور باريس بكاتب جديد وحققت لهذا الكاتب الجديد حلما عزيزا . وعلى أثر هـذا التوفيق السريع ، اتخذ « أنوى » قراره — وهو فى الثانية والعشرين من عمره — بالتفرغ للتأليف المسرحى تفرغا كاملا . وتزوج الممثلة « مونيل ڤالنتان Monelle Valentin » التى أحبهـا وتوسم فيها فنانة تضطلع بأدوار بطلاته ..

على أن النجاح لم يحالف مسرحيته التالية « ماندارين Mandarine » سـنة ١٩٣٣ . لم يعاوده الا بعد انقضاء عامين آخرين ، حين قدم سـنة ١٩٣٥ مسرحيته « حكاية سجين Y avait un Prisonnier » . ولحسن حظـه عرضت عليه شركة « مترو جولدين ماير » الأمريكية — لقاء مبلغ ضخم — أن تشترى قصة المسرحية لتحولها الى فيلم سينمائى ، فقبل

العرض بلا تردد ، دون أن يهتم بمصير قصته ، التى لم تصنع منها شركة « مترو » شيئا حتى اليوم ! ولقد ضمن لأديبنا ذلك الرزق الذى هبط عليه ما كان ينشده من الاستقلال والاستقرار ليتفرغ لتأليف عمل مسرحى كبير كان يتوق الى تأليفه . وهكذا استطاع أن ينصرف بمواهبه كلها لكتابة « المسافر بلا متاع Le voyageur sans bagages » .

وطمع « أنوى » فى أن يخرج « چوڤيه » بنفسه هذه المسرحية الجديدة ويمثلها . ولفت نص « المسافر بلا متاع » فعلا نظر « چوڤيه » ، الا أنه لم يتعجل اخراجها ، فنفد صبر المؤلف الشاب ، وسحب مسرحيته فجأة ، وسلمها الى فنان آخر موهوب ، روسى الأصل ، هو « چورچ پيتوئيف » الذى طلع بها على جمهور باريس سنة ١٩٣٧ .

وتختلط معالم حياة « چان أنوى » بمعالم نشاطه الفنى ، فلعل خير ما نوجز به سيرته بعد ذلك هو أن نستعرض أهم ما ظهر من مسرحياته منذ « المسافر بلا متاع » :

فى سنة ١٩٣٨ قدم « المتوحشة La Sauvage » و « حفلة اللصوص الراقصة Le Bal des voleurs » (وكان قد ألف الأولى سنة ١٩٣٤ والثانية سنة ١٩٣٢) . وفى سنة ١٩٣٩ « ليوكاديا Leocadia » . وفى سنة ١٩٤١ « لقاء

سانليس Le Rendez-vous de Senlis » (التى ألفها سنة ١٩٣٧) . وفى سنة ١٩٤٢ « أوريديس Eurydice » . وفى سنة ١٩٤٤ « أنتيجون Antigone » (التى ألفها سنة ١٩٤٢) . وفى سنة ١٩٤٦ « روميو وچانيت Roméo et Jeannette » . وفى سنة ١٩٤٧ « الدعوة الى القصر L'Invitation au château » . وفى سنة ١٩٤٨ « أرديل أو المرجريت Ardèle ou la Marguerite » . وفى سنة ١٩٥٠ « التدريب على المسرحية أو عقاب الحب La Répétition ou l'Amour puni » . وفى سنة ١٩٥١ « كولومب Colombe » . وفى سنة ١٩٥٢ « ڤالس مصارعى الثيران La valse des a Toréadors » . وفى سنة ١٩٥٣ « القنبرة L'Alouette » و « ميديا Médée » (التى ألفها سنة ١٩٤٦) . وفى سنة ١٩٥٤ « سيسيل أو مدرسة الآباء Cécile ou l'Ecole des Pères » . وفى سنة ١٩٥٥ « أورفيفل أو تيار الهواء Ornifle ou le courant d'air » . وفى سنة ١٩٥٦ « بيتوس المسكين أو عشاء الرءوس Pauvre Bitos ou le dîner de têtes » . وفى سنة ١٩٥٩ « شارد البال أو الرجعى العاشق L'Hurluberlu ou le réactonnaire amoureux » ، و « بيكيت أو شرف الله Becket ou l'honneur de Dieu » . وفى سنة ١٩٦١ « الكهف

La Grotte » . هذا الى جانب اشتغال « أنوى » باعداد بعض الأفلام السينمائية واقتباسه — فى أسلوبه الحديث — لبعض مسرحيات شكسبير وأوسكار وايلد وأونيل وموليير .

— ٢ —

و « المسافر بلا متاع » من أجود مسرحيات « جان أنوى » ، وأحفلها بمعانيه ، وأدلها على اتجاهه . وقد أعيد تمثيلها مرارا ، وعاشت — حتى الآن — ربع قرن من الزمان لم تفقد خلاله شيئا من قوتها وجدتها . لذلك رأينا أن تكون أول ما تقدمه سلسلة « روائع المسرح العالمى » من أدب « جان أنوى » الى قراء العربية .

وتعجبنا فى الفصل الأول — أو اللوحة الأولى — براعة الاستهلال . فالكاتب يريد أن يعرفنا بشخصيات المسرحية قبل كل شىء . وهو يسلك فى ذلك طريقا طبيعيا سهلا ، يتدرج فيه حتى تجتمع لدينا المعلومات التى تحدد لنا خلق كل شخص ومكانه من أحداث القصة ومراميها . هذه الدوقة « ديبون ديفور » سيدة ثرثارة ، تصطنع الرفعة والرقة ، وتتكلف أناقة القول وكرم الغاية ، وهى الصفات التى تمتاز بها طبقة الأشراف ، مع أنها فى الواقع امرأة غليظة المشاعر ، نفعية منافقة ، تخدع

نفسها بالمظاهر كما تخدع سواها . انها لم تصطحب الفتى « جاستون » — الذى فقد ذاكرته أثناء الحرب العظمى — من أسرة الى أسرة لمجرد اعادته الى أحضان أهله رحمة به ورحمة بهم ، بل للمطالبة بمكافأة تتمناها نظير عنايتها المزعومة به فى السنوات الأخيرة . ولذلك يرافقها مستشار قانونى وكلته بمصالح « جاستون » ، هو الأستاذ « هوسپار » . ولقد رفضت — دون نقاش — احتمال أن يكون « جاستون » ابن بائعة ألبان أو ابن وقاد مصابيح ممن تعرفوا صورته والتمسوا أن يقابلوه ، وأصرت على أن تأتى به الى « آل رينو » أصحاب هذه الدار الكبيرة المليئة بالأثاث الفاخر والخدم والحشم ، التى يرتفع عنها الستار .

وأما « جاستون » فلا يتعرف من « آل رينو » أحدا ، ولا تذكّره أنحاء الدار بأى شىء . عبثا يتصفح وجوه الحاضرين الذين خفوا للقائه بلهفة المشتاقين — وهم أمه وأخوه وزوجة أخيه ، وعبثا يطوف بأركان المنزل والحديقة .. على أن الجميع هنا — من سادة وخدم — يؤكدون أنه « چاك رينو » بعينه . لا سبيل الى الشك فى شخصيته . وها هم يحاولون — بعد أن خيب ظنهم باستغراقه العنيد فى النسيان — أن يقنعوه بأنه واحد منهم .

يتفننون فى أساليب بعث الذكريات الى نفسه ، ذكريات الطفولة والصبا والشباب . يأخذونه بكل رفق ، يحدثونه عن وقائع شهيرة ، يقودونه الى غرفته الخاصة ، حتى اذا نام فى سريره الذى اعتاد أن ينام فيه قديما ، هيأوا له أن يستيقظ وسط الأشياء التى كان يعهدها من حوله ، لعلها توحى اليه بما غاب من وعيه .. ولا يدعون مناسبة دون أن يرووا له ما تيسر من سيرته وأطواره .

ويبذل « جاستون » — من جانبه — جهدا صادقا فى الالمام بهذا الماضى المجهول الذى يسوقه اليه أهل البيت ، عسى أن يستطيع ولوجه من بعض أبوابه . ويأخذ فى استجواب الجميع عن فصول الحياة التى يزعمون أنه عاشها بينهم ، بل ويلح عليهم بالسؤال كلما تحرجوا عن سرد أحداث أو تفاصيل غير مشرفة .

ويا هول ما يقف عليه ! انه يكتشف شيئا فشيئا أن « چاك رينو » هذا الذى اختفى فى جبهة القتال منذ ثمانية عشر عاما ، لم يكن سوى نذل حقير . ذات يوم ، تشاجر مع خير أصدقائه — ولأى سبب ؟ ليستأثر دونه بمعايثة الخادمة الصبية واغتصابها ! فدفعه بعنف من أعلى السلم ، وكسر فى ذلك عموده الفقرى ، وقضى على صديقه الحميم بالشلل مدى

الحياة . وكان « چاك رينو » فظا شديد القسوة ، لا نحو أمه وأخيه وأصدقائه وخدمه فقط ، بل حيال أصغر كائنات الطبيعة وألطفها : فقد كان يتلذذ بقتل الطيور ، وبتعذيب الجرذان فى الفخاخ حتى تموت . ولكى يحصل على مال يبذره فى لهوه ومجونه ، تفتق ذهنه الخبيث عن خطة جريئة بهـا اختلس خمسمائة ألف فرنك من سيدة عجوز وثقت به لثقتها بأمه ..

ولم يقف فساده عند هذا الحد الرهيب ، بل تمادى الى اغواء زوجة أخيه « ڤالنتين » ، هذه التى نفهم من ابتسامها وسلامها وكلامها أنها ما زالت مفتونة به ، تشتهى عـودته لوصالها . وازاء نفور « جاستون » المتزايد ، واستبشاعه سيرة « چاك » ، وابائه أن يكون اياه على كل حال ، تقدم له « ڤالنتين » الدليل القاطع على أنه هو هو ذلك الوغد الذى يريد أن يتحاشاه . ألم يكن عاشقها ؟ انها اذن تعرف جسمه : فما عليه الا أن يتحقق من أثر جرح فى ظهره ، تحت كتفه اليسرى ، أحدثته هى ذات ليلة بدبوس قبعتها .

وتبلغ كربة « جاستون » أقصاها ، عندما يعرى ظهـره أمام المرأة ، ويفحص لاهثا ما تحت كتفه اليسرى . نعم ، ويرى أثر الجرح المذكور ، فيجهش بالبكاء .. وهذا المشهد — وهو اللوحة الرابعـة — قمة من قمم المسرحية : فنحن

لا نبصر جاستون الذى احتبس نفسه ليجابهها وحده ، وانما تتتبع ما يفعله خلال تعليق الخدم عليه وهم يتزاحمون ليسترقوا النظر من الكوة ساخرين شامتين ، فى بذاءتهم الطبيعية المعبرة .

وفى اللوحة الخامسة ينقلب البطل على ماضيه ، يطلقه بلا رجعة ، يتبرأ منه ويصر على نبذه . لا يتردد فى أن ينزل عن كل ما ورث فى المجتمع من جاه وأموال وامتيازات ، نظير أن يقطع كل صلة تربطه بهذا البيت وأهله . ويستبسل فى مقاومة « ڤالنتين » التى تسعى لاستبقائه بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى ، وفى مقاومة أخيه الأكبر « چورچ » الذى يعده بالصفح والغفران . لا همّ له الآن الا الرحيل ، كما أنى ، خفيفا بلا متاع .

وتسنح له فى الحال فرصة رائعة يغتنمها . يلتقى بغلام انجليزى صغير ، أتى ضمن وفود العائلات العديدة التى فقدت فى الحرب أقرباء وما زالت تبحث عنهم . والصبى يزعم فى سذاجة مضحكة أنه عم الشخص المفقود . هكذا لقنه محاميه « مستر پيكويك » ، ولابد أن يجد ابن أخيه المزعوم حتى تنطبق عليه شروط وصية قانونية تتيح له أن يرث — دون شريك — ثروة طائلة . ولماذا لا يقبل « جاستون » أن يكون

عمه هذا الغلام ؟ انه ليفعل ، ويغادر معه البيت الذى نشأ فيه ، دون أن يودع أحدا ، وغير آسف على شىء .

وتنتهى المسرحية هذه النهاية المفاجئة ، التى لا تخلو من التكلف والافتعال . وقد عدها بعض النقاد — ومنهم « جبريل مارسيل » — نقطة ضعف فى التأليف . ولكننا نرى بوضوح أن « چان أنوى » قد اتخذ هـذا المخرج من قبيـل التهكم والسخرية ، وهو سبيل الهزل الذى كثيرا ما تنعرج اليه الحياة اذا انسدت دونها مسالك الجد . وعندما تتجمد أوضـاع الواقع على ما تطويه من سخف وحماقة ، ألا تصبح الفكاهة أحكم وأجدى ؟ ان « أنوى » يتعمد تقديم هذه الحكمة الساخرة . وتتجلى سخريته من ناحية فى اطلاق اسم «پيكويك» على المحامى — و « پيكويك » من أشهر الشخصيات المضحكة فى أدب « تشارلس ديكنز » ، ومن ناحية أخرى فى أنغـام الموسيقى المتهكمة التى تصاحب تمثيل الفقرات الأخيرة من المسرحية ، وقد وضعها خصيصا لهذا الغرض « داريوس ميو Darius Milhaud » . ولا حاجـة بنـا الى أن نبـين لماذا اختار « جاستون » أن ينتسب لصبى لا ذكريات له ، وصبى انجليزى يفصله عن أصله الفرنسى ، وصبى وحيـد بلا عائلة .

والموضوع الذى تعالجه مسرحية « المسافر بلا متـاع » موضوع أثير لدى « چان أنوى » نستطيع أن نتتبع جذوره فى مسرحياته السابقة . أجل ، لقد استوحى « أنوى » مسرحية چيرودو الشهيرة « سيجفريد » ، وجعل هنا بطله « جاستون » — مثل «سيجفريد» — رجلا فقد الذاكرة . ولكن «سيجفريد» وان كان ضحية نفس المرض ، الا أنه طراز آخر من الرجال : انه زعيم ممتاز ، لامع ، غذير الثقـافة ، على حين ينغمر « جاستون » — كما تنغمر شخصيات « أنوى » عادة — فى أوحال واقع ملوث هو نقيض ذلك السمت وتلك الأبهة . والحق أن ملامح « جاستون » أقرب الى ملامح « لودوڤيك » بطل « حكاية سجين » .

وتتلخص قصة « لودوڤيك » هذا فى أنه كان من أمهر رجال المال ، غير أن نفسه سولت له أن يعلن افلاسه بطريقة تضيع معها عنده حقوق دائنيه . فعوقب على جريمته — فى روما — بالسجن خمس عشرة سنة . وترتفع الستارة عن أفراد أسرته ، وقد اجتمعوا على ظهر سفينة صغيرة خاصة ، راسية فى ميناء «طولون» ، يملكها زوج أخته — وهو من دهاة رجال المال

أيضا — ليحتفلوا بخروجه من السجن ، وعودته ، بعد انقضاء تلك المدة الطويلة . ويدخل « لودوڤيك » فى بساطة تزرى بتكلفهم ومظاهرهم . لا يكاد يفتح عينيه كأنه لا يطيق النور الساطع من حوله ، حتى اذا سرح بصره بين هؤلاء الذين كانوا أقرب أقربائه ، أحس ازاء تفكيرهم واهتماماتهم وعباراتهم أنهم تغيروا ، أنه غريب عنهم وأنهم غرباء عنه . ويعترف ، أثناء اجاباته على أسئلتهم السخيفة المتلاحقة عن حياته فى السجن ، بأنه لم يفتقد شيئا هناك كما افتقد الزرع الأخضر والحيوان الأليف . وتحلق قنبرة فوق السفينة فينتشى بتحليقها . ولقد اصطحب رفيقا من رفاق السجن ، مذنبا غريب الأطوار ، شرط على أهله أن يستضيفوه والا فارقهم ومضى واياه الى حيث لا يدركونه . ويكتم أفراد الأسرة اشمئزازهم ، الا أن « باريكان » — زوج أخته الذى كفل الجميع الى حين الافراج عنه — لا يكتم نواياه . فهو يطالب « لودوڤيك » أولا بأن يغير اسمه ، ثم بأن يعمل أجيرا لديه ، ليسدد بكدحه المبالغ التى أنفقها على العائلة . وينشب النزاع بين الرجلين ، ويحتدم شجارهما ، حتى يضطر الباقون الى التدخل لفضه . ويلوذ « لودڤيك » بصالون السفينة ويتحصن فيه ، لا يريد أن يغادره حتى تجاب رغباته .

وهو يرغب فى أن يلتقى بصديقه القديم « الدكتور مارسلان بوتقيل » ، فيبادر أهله الى تيسير هذا اللقاء ، لعل صديقه الطبيب أن يفلح فى أن يسمعه صوت العقل . وتستقبل الأسرة ذلك الرجل قبل أن تدخله الى « لودوڤيك » ، فنرى شخصا بدينا تبدو عليه علائم البشر والمرح ، ولكنه سرعان ما يكتئب عندما يعلم أنه مكلف بتلقين درس الواقع لصاحبه الناشز . واذ يختلى مارسلان بلودوڤيك ، يدور بينهما حوار بليغ . أما « لودوڤيك » فيرفض أن يتكلم عن نفسه ، ويحرص على أن يستطلع ما آلت اليه حياة صديقه بعد خمسة عشر عاما من حرية التصرف فى شئونه الخاصة . ترى ماذا فعل بهذا الوقت الثمين ؟

— فكرت كثيرا فيك ، ثم ، كما ترى ، سمنت وشخت .

— بل قل لى ماذا ألم بك من الأفكار ومن العواطف ؟

— سار العمل فى عيادتى سيرا لا بأس به . وضاربت فى البورصة ، فكسبت قليلا من المال وخسرت الكثير . ثم انقطعت عن المقامرة .

ولكن « لودوڤيك » يستفهم عن غير هذا كله ، فيخطر لمارسلان أن يحدثه عمن رحلوا عن الدنيا :

— لقد فقدت أبى ، وكذلك أحد أعمامى .

— دعنا من الموتى .

— واتخذت عشيقات كثيرات .

— هل أحببتهن ؟ ..

— لا ! ما كنت أنت لترضى لى بذلك ، لم أخلص الحب لأى منهن ، فقد عمدن جميعا الى خياتنى ، ولم أحتفظ بواحدة منهن أكثر من سنة .

وماذا فعل أيضا فى تلك الفترة الغالية من عمره ؟ قام برحلة حول سواحل البحر الأبيض المتوسط ، رحلة عظيمة ، مدهشة .. فيصيح « لودوڤيك » بازدراء :

— ما الحياة بالنسبة للناس الذين ظلوا أحرارا سوى ألفاظ !

وهنا يتضح المعنى الذى قصد اليه المؤلف من جعل المجرم الذى يلازمه البطل رجلا أبكم ، قد قطع السجناء لسانه قطعا لكى لا يفشى أسرارهم .. الصمت اذن خير من الكلام الأجوف الذى تتحول اليه فصول حياة تافهة ! لقد أراد « لودوڤيك » أن يعرف مم حرمه المجتمع منذ زج به فى السجن ، وها هو ذا يجهر بأنه لا يأسف قط على ما فاته ، اذا كان ما فاته من نعم الحياة لا يتعدى ما أصابه منها صديقه الطبيب . ويمعن فى سخطه وتجهمه ، وتتدفق لعناته ، فيهدىء صديقه من روعه

وهو يعتقد أنه يواجه اذ ذاك مجنونا جامحا ، مجنونا يدفعه اليأس الى محاولة الانتحار . ويبذل الطبيب قصارى جهده ليثنى « لودوڤيك » عن عزمه الأسود ، ويخيل اليه أنه أفلح فى اقناعه ، غير أنه لا يكاد ينصرف مطمئنا ، حتى يهم البطل القانط بالوثوب الى البحر ، فيعترضه صاحبه الأبكم وينقذ حياته قسرا .

وفى الفصل الأخير ، يظن الجميع أن « لودوڤيك » قد استجاب لمنطق « مارسلان » الذى بات يصور له أن الحياة — رغم كل ما يشوبها — تستحق أن نحياها . « مارسلان » هو الذى يزعم أنه بات ساهرا يعظ ويرشد صديقه ، مع أنه راح يغط فى نومه معظم الليل . وتقبل على « لودوڤيك » فى الصباح زوجته مشقشقة ملاغية ، فتغمره بعبارات الحنان والشكران ، التى تنم عن أنانيتها وضيق أفقها . وتفضى اليه — ضمن كلامها — بأنها قضت السنوات الماضية فى التردد على منتديات الطبقة الراقية ، وأنها كثيرا ما جررت سآمتها من حفلة الى حفلة ، وهى فى قرارة نفسها تحسده على اعتزاله العالم ولو فى السجن . ويزهد « لودوڤيك » فى حديث امرأته ، فيتحول الى ابنته التى ينتهبها الجزع على خطيبها : لقد كشف خطيبها الآن عار الأسرة ، وأكبر الظن أنه لن يعقد زواجه

عليها نظرا لمنزلته الاجتماعية العالية . ويشفق الأب البر على بنته . واذا جد الجد لن يحجم عن التضحيات المطلوبة منه لانقاذ سمعة العائلة والابقاء للفتـــاة على خطيبهـــا . غير أنه يسألها أولا هل هى تحبه حقا ؟ فيعلم أنها لا تحبه ، وانما تستمسك به لأنه « عريس عظيم » ما كانت تأمل الفوز بمثله . ينصحها بكل صراحة أن تفسخ خطبتها ، ولكنها ترفض . ماذا بقى له ؟ لا خير فى الأسرة ما دامت الروابط بين أعضائها فاسدة أو منعدمة .

بقى العمل . والعمل الشريف حق وواجب ، وقد يكون فيه العزاء والجزاء . ويفحص « لودوڤيك » اوراق الشركة التى يريدون له أن ينتشلها من افلاسها بجهد مضاعف يبذله ، فيتضح له التزييف والتدليس والاجرام . كلا ، انه لن يقبل هذا العرض ، ولن يقبل أن ينضم الى عصابة هؤلاء النـــاس المحترمين ! ويثور من جديد ، فيقرر أهله أن يضعوه شهرين أو ثلاثة أشهر فى أحد مستشفيات الأمراض العقلية ، لكى يستجم ويستعيد صوابه . ويذعن لأمرهم ، أو يظهر الاذعان . لقد أبحرت السفينة وابتعدت عن الشاطىء . وفجأة — فى ختام المسرحية — يقفز « لودوڤيك » وصاحبه الأبكم الى الماء . ويغيبان عن الأعين . ونجهل مصيرهما . لكنهما يحسنان

السباحة ، فلعلهما ينجوان من الغرق ويستأنفان فى مكان ما حياة أفضل من هذه التى يفران من شرها فرارا .

وهكذا نزع « چان أنوى » فى « حكاية سجين » الى ادانة المجتمع ، واتخذ من تمرد انسان بمفرده على أوضاع العالم بأسره مادة الصراع الدرامى . وتتضمن مسرحية « المسافر بلا متاع » مثل هذا المغزى الاجتماعى الأخلاقى ، الا أنها تضيف اليه مسألة ميتافيزيقية أعمق وأخطر ، هى مسألة علاقة الكائن بارادته الخاصة .

— ٤ —

بين جدران السجن ، تبدل « لودوڤيك » . انصرف عن ضلاله القديم ، ونظر الى الحياة نظرة جديدة ، صحح على ضوئها أخطاءه السابقة . تعلم الشظف ، وجد الأمور ، والبساطة . والى هذا كله يرمز السجين الأبكم الذى أصبح الآن لا يفارقه . وكذلك تبدل « جاستون » . خلع ماضيه كله عندما فقد ذاكرته أثناء الحرب . ثم قاده المؤلف بدوره ليواجه أمامنا عائلته . موقف أساسى واحد قامت عليه المسرحيتان . ولكن « جاستون » فى « المسافر بلا متاع » لا يواجه عائلته فقط بل يواجه نفسه أيضا . والأمر أمر حياته بتمامها ، اذ أن الوجود

هو انتقال الماضى بفعـل الذاكرة لحظة لحظة عبر الحاضر فالمستقبل .

انه يستدعى ماضيه ، وينبعث له هذا الماضى جزءا تلو جزء ، خلال التحقيق الشامل الذى يقوم به فى الدار التى طوت طفولته وصباه وشبابه . وتنسبك حوله حلقات ذلك الماضى ، وتطوقه ، وتضيق عليه الخناق ، كلما أمعن فى استجواب الشهود الذين عرفوا أطواره واحتملوا جرائره ...

هذا انسان يبدأ وجوده من الصفر ، ليجمع أشتات الحياة التى تنقصه . ويظن أنه خرج فى رحلة العمر نحو السعادة . وما أكثر ما تتوسم السعادة فى المجهول ! على أن السعادة التى يتمثلها جاستون لنفسه ليست مطمحا عظيما ، باهرا ، بعيد المنال هيهات أن تجود به الأيام ، بل هى سعادة النفس المتواضعة ، الرقيقة الصادقة . انه لا يغلو فى حلمه اذا قنع بهذه الصور فى وصف أفراح صباه :

— ... يوم تسرب الماء من صنبور الحمام ولم يستطع أحد أن يقف تدفقه ، يوم طرأ على موقد المطبخ خلل هائل ، أو صادفنا محصل ترام مضحكا ... فضحكت أمامك . يوم انشرح صدرى بهدية ، أو بشعاع من الشمس . لست أسألك فرحة طاغية ... بل فرحة صغيرة جدا ..

وأما سعادة شبابه ، فحسبه أن يتخيلها على هـذا النحو البسيط أيضا :

— من بين آلاف الذكريات الممكنة ، كانت ذكرى صديق حميم هى التى أحن اليها بأعظم الشوق .. شيدت كل شىء على أساس من ذكرى هذا الصديق الخيالى . نزهاتنا التى شغفنا بها ، والكتب التى اكتشفناها معا ، وفتاة أحبها هو وأحببتها أنا فى الوقت ذاته فنزلت له عنها وضحيت بهـا ، بل — وستضحكان من هذا — اننى أنقذت حياته يوما فى زورق . اذن ، ان كنت ابنكم ، أليس علىّ أن أعتاد حقيقة ما أبعدها عن حلمى ..

ويشقى بخيبة آماله ! انهم ينبئونه عن كل حقبة بنقيض ما كان يتوقعه . لا يكاد يفيق من صدمة حتى ترديه صـدمة أشد . وليس أقسى على الانسان من فجيعته فى نفسه ، وانهيار أعز ما يرنو اليه . عليه الآن أن يستأنف العيش كسيرا عانيا ، فى جو خطاياه التى نسيها . عليه أن يضع خطاياه فوق كاهله ، وأن يزرح الى آخر العمر تحت عبء فادح يسحقه . وما الذى يرغمه على الزج بنفسه فى هذا الجحيم بعد أن خرج منه واستمتع بالحرية ؟ فليطرح تلك الأثقال ، وليطوح بأولئك

الناس ! ولينزع عن حياته كلَ ما أراد الواقع المشئوم أن يلصقه بها من أدران .

ها هو ذا يثور على أمه :

جاستون — لست « جاك رينو » ؛ لست أتعرف شيئا هنا مما كان له . ذات لحظة ، نعم ، وأنا أصغى الى كلامك ، خلطت بينه وبيني . انى أسألك العفو . ولكن ، لعلك ترين أن ماضيا بأكمله ، بالنسبة لرجل بلا ذاكرة ، انما هو عبء باهظ أثقل مما يطيق ظهره أن يحمله دفعة واحدة — لو شئت أن تؤدى لى خدمة ، لا خدمة بل فضلا ، أرجو أن تسمحى لى بالعودة الى الملجأ . لقد كنت أغرس الخس ، وألمع الأرضيات . وكانت الأيام تمضى .. ولكنها حتى بعد انقضاء ثمانى عشرة سنة — وذلك بالضبط نصف آخر من حيـاتى — لم تتمكن وهى تتضاف يوما الى يوم ، من أن تصنع هذا الشيء الفتاك الذى تسمونه الماضى .

مدام رينو — انما ، چاك ..

جاستون — ثم لا تسمينى بعد الآن چاك .. لقـد فعل أشياء كثيرة ، چاك هذا . جاستون أحسن ؛ انه وان لم يكن شخصا موجودا ، فأنا أعرف من هو . ولكن چاك هذا الذى أحاطت باسمه جثث كل تلك الطيور ، چاك هذا الذى احتال

وآلم ورحل وحـده الى الحرب دون أن يرافقه الى قطاره مودع ، چاك هذا الذى لم يستطع حتى أن يحب ، انه يخيفنى .

وعندما تتحداه « ڤالنتين » بذكر الدليل القاطع على أنه « چاك رينو » يتحداها « جاستون » بالانكار ، ويتخلى الى الأبد عن ماضيه ، وعن الأشخاص الذين اتصلوا بماضيه ، وأولهم هو ذاته :

ڤالنتين — أو تدرك — مجرد ادراك — ما تقوم به الآن ؟

جاستون — نعم . انى أقوم الآن برفض ماضىّ وأشخاصه — بما فيهم أنا . ربما كنتم عائلتى ، وغرامياتى ، وقصتى الحقيقية . نعم ، ولكن هناك شىء ، وهو .. أنكم لا تعجبوننى . انى أرفضكم .

ڤالنتين — فانك مجنون ! فانك وحش ! لا يستطيع الانسان أن يرفض ماضيه ، لا يستطيع الانسان أن يرفض نفسه ..

جاستون — اننى بلا شك الانسان الوحيد ، حقا ، الذى وهبه القدر الفرصة السانحة لتحقيق ذلك الحلم الذى يراود كل انسان .. اننى رجل ، وفى استطاعتى أن أكون ، اذا شئت ، جديدا جدة الطفل ! وهذا امتياز أرى من الاجرام ألا أنتفع به . انى أرفضكم . ليس لدىّ منذ أمس — الذى لم أكد أقضيه بينكم — الا فيضا من أشياء عنى ينبغى أن أنساها .

هكذا يسلك البطل الوجودى . انه يتخير طريقه ، ويصنع نفسه . لا كما يريد له الناس ، والعالم الخارجى ، بل كما يريد شخصيا . لأنه يؤمن بحريته قبل كل شىء . لا يعنيه منطق الآخرين ، وما قبلوه من أوضاع خاطئة ، وانما هو يثبت وجوده الأصيل بمقاومة الضغط والاكراه .

لقد انتقل « جاستون » أمامنا من حالته الأولى — حالة الصفحة البيضاء — الى حركة الاستطلاع ، ثم الى القلق ، والأسى .. وبعد أن تأكد من أنه صاحب ذلك الماضى المثقل ، أهاب بحريته ، واتخذ قراره الخطير بتغيير مصيره . حكم باعدام الفتى الذى كانه ، ليصبح الرجل الذى يود أن يكونه . وانتهى صراعه بأن قضى على شبح ماضيه ، كما يبدد العاقل وهما راوده . وانطلق يلتمس حقيقة جديرة بكرامته الانسانية .

ولعلنا نستطيع أن نوجز قصة « المسافر بلا متاع » كلها فى صرخة « جاستون » :

— انما أنا موجود ! ولى وجودى بالرغم من حكاياتكم ..

ولا ينبغى أن يشغلنا عن هذا المعنى الجوهرى ما عجت به المسرحية من نقد اجتماعى ، مهما عنف . أجل ، ان المؤلف صادق فى صب لعنته على الحرب ، مصدر المآسى البشرية ، صادق فى ادانة أساليب التربية العتيقة التى تتمثل فى صرامة

أم « چاك » وتشددها واستعلائها ، صادق فى فضح عواقب الزواج الوخيمة اذا فرضته على الفتاة — بغض النظر عن عواطفها — اعتبارات تقليدية أو حاجات مادية ، صادق فى وصف الفساد الذى يستولى على شباب يرتع فى الفراغ والجدة ، صادق فى هجومه العام على الناس وقد تخاذلوا ، وأذعنوا لهذه الآثام ، بل وتواطأوا على سترها بحجاب النفاق . فهم يثيرون الحرب ، ويمجدون فظائعها ، باسم النظم والشعوب والمبادىء والواجبات ! وهم يضحون بأجمل العواطف ، ويستهترون بالحب والفضيلة والأسرة ، وتهون عليهم الحقائق كلما لوحت لهم الدنيا بمنفعة قريبة . ونسج « أنوى » من النفاق الاجتماعى شخصية الدوقة « ديبون ديفور » ، التى رأينا كيف استغل ثرثرتها فى بناء المسرحية وأسند اليها وظيفة « العرض » .

والحق ان لكل من الأشخاص — حتى الخدم — مشكلاته الاجتماعية والأخلاقية . ولكن « أنوى » لا يقتصر على اثارة هذه الموضوعات ، ولا يجعل همه الرئيسى أن يتخذ منها قضايا يناقشها ويدعو الجمهور الى حلها . انه يتجاوز ما ذهب اليه مسرح « ابسن » من قبله ، ومسرح « برنارد شو » . ويسير قدما ، فيتعمق التفاعل بين النفس ومصيرها داخل الأوضاع

البشرية ، ويسبق « سارتر » الى تصوير البطل الوجودى الذى أسفر عنه عالمنا المعاصر . ولا يتقمص « جاستون » وحده هذه الفكرة الوجودية فى أدب « أنوى » ، بل انه يمثل ناحية مميزة نعهدها لدى معظم أبطال هذا المسرح المتمردين على عالمهم الكاذب ، الباحثين عن وجودهم الحقيقى ، المؤمنين بالصراع لتحويل اتجاهاتهم وتحرير أفعالهم . وما أشبه « جاستون » فى ذلك بـ « أورفيه » و « أتيجون » و « چان دارك » و « بيكيت » ..

— ٥ —

ولسنا نعنى أن « چان أنوى » فيلسوف من فلاسفة الوجودية المعاصرة ، مثل « كامى » أو « سارتر » أو « جبريل مارسيل » . من الطريف أن هؤلاء الثلاثة الأخيرين قد جمعوا بين الفكر الفلسفى النظرى الخالص — فى كتب لهم تشرح مذاهبهم — وبين التأليف المسرحى . غير أنهم بدأوا بالفلسفة ثم انتقلوا منها الى الأدب والفن ، فطبعوهما بطابع جدلى . أما «أنوى» فيستقى مباشرة من منابع «الدراما» . نشأ — كما أسلفنا — فى أحضان المسرح ، فأصبح أدرى بأسرار صنعته . وليس أبعد عن التجريد الذهنى من فنه . انه يخلق أشخاصه

من لحم ودم وأعصاب ، ويضعهم فى واقع مجسم ملموس ، وينطقهم بلغة حية تحرك القلوب .

وفى « المسافر بلا متاع » تتجلى براعة الصياغة المسرحية . تؤدى وحدة الموضوع والمكان والزمان ، الى تركيز شديد ينتج عمق التأثير — تلك الروعة المنشودة التى فطن اليها قديما أصحاب المسرح الكلاسيكى . ولكن « أنوى » لا يقسم مادته هنا الى الفصول والمشاهد التقليدية ، بل الى «لوحات» طويلة أو قصيرة . وهو لا شك يقتبس للمسرح بعض أساليب السينما التى أخذت تنافسه فى جيلنا منافسة جدية — فنحن نعلم أنه ممن مارسوا الكتابة للسينما بنجاح . على أنه احتفظ لنا بروح المسرح ، وساق الينا « تراجيديا » قتل فيها البطل نفسه الأولى ، ومات كما تموت البذرة فى الأرض لكى تنبت نباتا جديدا ، « تراجيديا » لا تتعثر فيها الحركة الدرامية بل تسرع باطراد رهيب حتى تبلغ غايتها .

واذا كانت « المسافر بلا متاع » تعبيرا عن أزمة انسان القرن العشرين وصراعه ، فانها تحمل الينا رسالة الضمير الحى فى شكل متقن من نماذج الفن المسرحى .

أ. ل.

أشخاص المسرحية

جاستون	:	فاقد الذاكرة .
جورج رينو	:	أخوه على وجه التخمين .
مدام رينو	:	أم جاستون على وجه التخمين .
ڤالنتين رينو	:	زوجة جورج .
الدوقةديپون ــ ديفور	:	سيدة مشرفة .
الأستاذ هوسپار	:	وكيل الدعوى ، المكلف بمصالح جاستون الفلام الصغير
الأستاذ پكويك	:	محامى الفلام الصغير .
رئيس الخدم	:	خدم آل رينو .
السائق	:	
الوصيف	:	
الطباخة	:	
جولييت	:	

اللوحة الأولى

غرفة استقبال فى دار مترفة من دور الريف ، تطل على منظر عريض من حـــديقة فرنسية الطراز . عند رفعَ الستار يظهر المسرح خاليا ، ثم يدخل رئيس الخدم الدوقة ديبون — ديفور والأستاذ هوسپار وجاستون .

رئيس الخدم : من أعلن قدومه يا سيدتى ؟

الدوقة : الدوقة ديبون — ديفور ، والأستاذ هوسپار وكيل الدعوى ، والسيد ..

(تتردد) .

السيد جاستون .

(الى هوسپار) .

اننا مضطرون الى أن نطلق عليه هذا الاسم حتى يجد فى الأمر جديد .

رئيس الخدم : (ويبدو أنه على علم بالموضوع) آه ! لعـل الدوقة تلتمس العذر لسيدى وسيدتى ، فلم يكن سيدتى وسيدى ينتظران وصول الدوقة الا فى قطار الحـادية عشرة والخمسين . سأخطر فى الحال سيدى وسيدتى بقدوم الدوقة .

الدوقة : (ناظرة اليه وهو يبتعد) يعجبنى رئيس الخدم هذا ! .. آه يا صغيرى جاستون ، انى لأجن فرحـا . لقـد كنت واثقة من أنك ابن أسرة ممتازة .

هوسپار : لا تسرفى فى التفـاؤل ! لا تنسى أن لدينـا — فضلا عن آل رينو هؤلاء — خمس أسر أخرى ممكنة .

الدوقة : كلا يا أستاذ .. ان شيئا فى نفسى يحدثنى بأن جاستون سيتعرف فى آل رينو على أهله ؛ وبأنه سيجد فى هذا البيت جو ماضيه . ان شيئا فى نفسى يحدثنى بأنه سيستعيد هنا ذاكرته . وتلك غريزة نسائية قلما خدعتنى .

هوسپار : (ينحنى أمام حجة من هذا القبيل) اذن ..
(راح جاستون ينظر الى اللوحات المعلقة دون أن يأبه لهما ، وكأنه طفل فى زيارة) .

الدوقة : (تستجوبه) وأنت يا جاستون ، آمل أن تكون متأثرا ؟

جاستون : الى حد ما .

الدوقة : الى حد ما ! آه يا صديقى ، انى أتساءل أحيانا هل تدرك ما فى حالتك من ضنى ؟

جاستون : ولكن ، سيدتى الدوقة ...

الدوقة : لا ، لا ، لا . لن يقتلع شيء مما قد تقوله لى هذه الفكرة من رأسى . انك لا تدرك . هيا اعترف بأنك لا تدرك .

جاستون : ربما لسست أدرك تماما ، ياسيدتى الدوقة .

الدوقة : انك على الأقل ولد لطيف ، ولد يعرف كيف يعترف بأخطائه . وهذا ، لست أكف عن ترديده ولكن ذلك لا يهون من حقيقة الأمر وهو أن عدم مبالاتك وطيشك يستحقان غاية اللوم . أليس كذلك يا هوسپار ؟

هوسپار : اللهم ، انى ...

الدوقة : بلى ، بلى . ينبغى أن تؤيدنى — ماذا جرى ؟ — وأن تجعله يفهم أن الواجب عليه أن يتأثر .

(استئناف جاستون النظر الى الأعمال الفنية) .

جاستون : سيدتى الدوقة ؟

الدوقة : هل أنت من حجر ؟

جاستون : من حجر ؟

الدوقة : هل قلبك أقسى من الصخر ؟

جاستون : انى .. لا أظن ذلك ، يا سيدتى الدوقة .

الدوقة : اجابة ممتـــازة ! أنا مثلك لا أظن ذلك . غير أن ســلوكك يوحى للنــاظر اليك — اذا كان أقل اطلاعا منا على أمرك — بأنك رجــل من رخام .

جاستون : آه ؟

الدوقة : لعلك لا تفهم أهمية ما أقوله لك ؟ أنا أنسى أحيانا أنى أخاطب شخصــا فقــد الذاكرة وأن هناك كلمات لعلها غابت عن علمك منذ ثمانية عشر عاما . أتعرف ما الرخام ؟

جاستون : حجر !

الدوقة : هذا حسن . أفتدرى أى نوع من الأحجــار هو ؟ انه أشــد الأحجار صلابة يا جاستون . أتسمعنى ؟

جاستون : نعم .

الدوقة : ألا يثير فى نفسك شيئا أن أشبه قلبك بأقسى الأحجار ؟

جاستون : (متضايقا) أبدا ..

(برهة) .

بل قد يبعث فىّ الضحك .

الدوقة : أسمعت يا هوسپار ؟

هوسپار : (ليسوى الأمور) انه طفل .

الدوقة : (فى لهجة قاطعة) لم يعد هناك أطفال . انما هو جاحد .

(الى جاستون) .

هكذا ، وأنت تعانى مرضا من أغرب ما حار فى علاجه طب النفس ، وبينما أنت لغز من أكثر ألغاز الحرب العظمى اثارة للحيرة ، لا أكاد أترجم فى عبارة مهذبة لغتك الغليظة حتى يدعوك ذلك الى الضحك ؟ انك — كما قال وأصاب القول صحفى بارع — الجندى المجهول حيا ، هل يضحك هذا ؟ أتعجز اذن عن الشعور بالاحترام يا جاستون ؟

جاستون : ما دمت أنا المقصود بهذا ..

الدوقة : لا يهمنا ! باسم المعنى الذى تمثله ، ينبغى أن تمنع نفسك من الاستهزاء بنفسك . ربما يبدو أنى غير جادة ، ولكنى أعبر عما فى أعماق فكرى حين أقول : عندما تنظر فى مرآة ، عليك أن ترفع قبعتك تحية لنفسك يا جاستون .

جاستون : أنا .. لنفسى ؟

الدوقة : نعم ، أنت لنفسك . اننا نفعل ذلك جميعا عندما نتصور ما يمثله شخصك . فمن تحسب أن تكون أنت حتى تعفى من ذلك ؟

جاستون : لا أحد يا سيدتى الدوقة .

الدوقة : اجابة رديئة ! انك تظن أنك شخص عظيم الشأن . لقد غرتك الضجة التى أثارتها الصحف حول حالتك ، هذا كل ما فى الأمر .

(يريد أن يتكلم) .

لا تعلق بشىء ، والا أغضبتنى !

(يطأطىء رأسه وينصرف الى تأمل الأعمال الفنية .)

ما رأيك فيه يا هوسپار ؟

هوسپار : كما هو ، غير مكترث .

الدوقة : غير مكترث . هذا هو التعبير الصحيح . لقد كان على طرف لسانى منذ ثمانية أيام ولكنى لم أستطيع أن أنطق به . غير مكترث . انه كذلك تماما . ومع هذا ، فان مصيره هو الذى يتقرر ، يا للشيطان ! فلسنا نحن الذين فقدنا الذاكرة ، ولسنا نحن الذين نبحث عن أهلنا ، أليس كذلك يا هوسپار ؟

هوسپار : بالتأكيد .

الدوقة : فما العمل ؟

هوسپار : (هازا كتفيه ، فى غير احتفال) ما زالت لديك أوهام ايمان حديث العهد . ها هى ذى سنوات كاملة قد انقضت وهو يعارض جميع محاولاتنا بهذا الجمود .

الدوقة : لا ينبغى على أى حال أن ننكر العنـاء الذى يتكبده ابن أخى من أجله . ليتك رأيت بأى اخلاص عجيب يعالجه ، وبأى حماس يتولى هذه المهمـة ! أرجـو أن يكون قد أفضى اليك بالحادث قبل أن تسافر ؟

هوسپار : لم يكن الدكتور چيبلان فى الملجأ حينمـا مررت لآخذ ملفات جاستون . ولم أستطع للأسف أن أنتظره .

الدوقة : ما الذى تقوله لى يا أستاذ ؟ لم تر صـغيرى ألبير قبل أن تسافر ؟ انك تجهل الخبر اذن ؟

هوسپار : أى خبر ؟

الدوقة : عندما أجرى له آخر خراج للتثبت ، أفلح فى أن يحمله على الكلام وهو فى سكرة الألم . أوه ! لم يقل كلاما كثيرا .. لقد قال « خنزير » .

هوسپار : خنزير ؟

الدوقة : خنزير ، نعم . ستقول لى انها شىء تافه ، ولكن وجه الطـرافة فى الأمر أنهـا كلمة لم يسمعه شخص ينطق بها قط وهو متنبه ، كلمة لا يذكر أحد أنه لفظها أمامه ، كلمة ترشحها جميـع الامكانيات اذن لأن تكون صادرة عن ماضيه .

هوسپار : خنزير ؟

الدوقة : خنزير . انها قرينة صغيرة جدا — أجل — ولكننا توصلنا الى شىء ما . فان ماضيه لم يعد هوة مظلمة . ومن يدرى ، لعل هذا « الخنزير » أن يرشدنا الى الطريق .

(تحلم) .

خنزير .. لعله لقب صديق . لعلها شتمة أليفة ، من يدرينى ؟ وانما لدينا الآن على الأقل أساس صغير .

هوسپار : (حالما) خنزير ..

الدوقة : (تردد ، فى طرب) خنزير . حينما أقبل ألبير يزف الىّ بشرى هذه النتيجة التى كنا قد يئسنا من الحصول عليها ، صاح بى بمجرد أن

دخل من الباب : « عمتى ، لقد نطق مريضى بكلمة من ماضيه : انها شتمة ! » . فارتعشت يا عزيزى . خشيت لفظة قذرة . شاب فى مثل هذا اللطف ، انه ليؤلمنى أن يكون من منبت خسيس . ما كان أغنى صغيرى ألبير عن سهر الليالى — لقد نحل جسم الولد العزيز فى استجوابه وفى تطعيم ردفيه بالخراريج — لو أن الشاب استعاد ذاكرته ليقول لنا انه كان قبل الحرب بناء ! ولكن شيئا فى نفسى يحدثنى بعكس ذلك . انى صاحبة خيال يا أستاذى العزيز . وفى نفسى ما يحدثنى بأن مريض ابن أخى كان رجلا فى غاية الشهرة . اننى أود كاتبا مسرحيا ، كاتبا مسرحيا عظيما .

هوسپار : رجل واسع الشهرة ، ذلك احتمال ضعيف . لأنه لو كان كذلك لعرفه الناس قبل اليوم .

الدوقة : لقد كانت الصور كلها رديئة .. ثم الحرب ، يا لها من محنة ، أليس كذلك ؟

هوسپار : لست أذكر ناحية أخرى أن كاتبا مسرحيا معروفا قد ورد نبأ اختفائه لدى الأعداء فى أثناء

الحرب . ان المرء منهم يسجل فى المجلات أخبار أدنى تنقلاته ، فأولى من ذلك نبأ اختفائه .

الدوقة : آه ! يا أستاذ ، انك قاس ! انك تهدم حلما جميلا . ولكنه مع ذلك رجل عريق الأصل ، أنا واثقة من هذا . انظر الى هيئته وهو فى هـذه الحلة . لقد كسوته لدى خياط ألبير .

هوسپار : (وهو يضع منظاره) صحيح ! لقد كنت أقول فى نفسى : « ليست هذه حلة الملجأ .. » .

الدوقة : لا تظن يا عزيزى ، مهما بلغ الأمر أننى كنت أحتمل وجوده بقربى وهو فى خلة رمادية من القطن ذى الوبر ! بدليل أنى قررت أن أنزله فى القصر وأن أجول به شخصيا بين الأسر التى تطالب بمريض ابن أخى .

هوسپار : هذه المقابلات فى البيوت فكرة ممتازة .

الدوقة : أليس كذلك ؟ لقد قال بهذا صغيرى ألبير منذ تولى أمره . ان ما يلزمه لكى يستعيد ماضيه هو أن ينغمر فى جو ذلك الماضى بعينه . ولم يكن بين هذا الرأى وبين قرار اصطحابه لدى الأسر

الأربع أو الخمس التى قدمت أعجب الأدلة الا خطوة . ولكن جاستون ليس مريضه الوحيد ، فلم يكن مما يدخل فى تقدير ألبير أن يتغيب عن الملجأ طيلة وقت المقابلات . هل تطلب من الوزارة أن تخصص اعتمادا لتنظيم مراجعة جدية ؟ انك أدرى ببخل أولئك الناس ، ماذا كنت تفعل اذ ذاك فى مكانى ؟ لقد أجبت « موجود ! » كما فى سنة ١٩١٤ .

هوسپار : مثل رائع !

الدوقة : عندما أذكر أنه فى عهد الدكتور بونفان كانت الأسر تأتى وقد اختلط فيها الحابل بالنابل كل يوم من أيام الاثنين الى الملجأ ، فتراه بضع دقائق ثم ترجع من حيث أتت بأول قطار ! ... من عساه يجد أباه وأمه فى مثل تلك الظروف ، انى أسألك ؟ أوه ! لا ، لا ، لقد توفى الدكتور بونفان ، وحسنا فعل ، فمن واجبنا أن نلزم الصمت ، ولكن أقل ما يمكن أن يقال ، لو لم يكن الصمت فوق القبر فرضا مقدسا ، انه كان غير كفء ومجرما ..

هوسپار : أوه ! مجرم ...

الدوقة : لا تخرجنى عن طورى . ليته لم يمت كى ألقى فى وجهه هذه الكلمة . مجرم ! لقد كان من جرائره تخبط هذا التعس بين الملاجىء منذ سنة ١٩١٨ . حينما أذكر أنه احتفظ به فى « پوتتوبرون » قرابة خمسة عشر عاما دون أن ينطقه بكلمة واحدة من ماضيه ، وأن صغيرى ألبير ، الذى لم يتسلمه الا منذ ثلاثة شهور قد جعله يقول « خنزير » ، يأخذنى العجب ! ان صغيرى ألبير ، يا أستاذ ، طبيب نفسانى عظيم .

هوسپار : وشاب لطيف .

الدوقة : يا للولد العزيز ! بفضله ، أخذ كل هذا يتغير . مقابلات ، تقارير من خبراء الخطوط ، تحاليل كيماوية ، تحريات من الشرطة ، لن يدخر شيء مما فى طاقة البشر لكى يستعيد مريضه أهله . ومن الناحية الطبية بالمثل ، فان ألبير عازم على علاجه بأحدث الطرق . تخيل أنه أجرى حتى الآن سبعة عشر خراجا للتثبت .

هوسپار : سبعة عشر ؟ هذا عدد ضخم !

الدوقة : (مسرورة) عمل ضخم ! وفى غاية الشجاعة من جانب صغيرى ألبير . فيجب أن نعترف بأن فى الأمر مخاطرة .

هوسپار : وماذا كان من أمر جاستون ؟

الدوقة : من أى شىء يجوز له أن يشكو ؟ ان كل شىء فى سبيل منفعته . سوف تصبح مؤخرته كالمصفاة بلا شك ، ولكنه سيجد ماضيه ، وماضينا هو أفضل ما لدينا ! أى انسان كبير القلب تراه يتردد بين ماضيه وبين جلد مؤخرته ؟

هوسپار : لا محل للسؤال .

الدوقة : (وهى تلمح جاستون الذي يمر بالقرب منها) أليس صحيحا ، يا جاستون ، انك عظيم الامتنان للدكتور « چيبلان » اذ استخدم — بعد تلك السنين الطويلة التى ضيعها الدكتور « بونفان » — كافة الامكانيات لكى يعيد اليك ماضيك ؟

جاستون : كثير الامتنان ، يا سيدتى الدوقة .

الدوقة : (الى هوسپار) اننى لا أحمله على أن يقول ذلك .

(الى جاستون) .

آه ! جاستون ، يا عزيزى ، كم هو مؤثر أن تقول لنفسك بأن وراء هذا الباب ربما يوجد قلب أم يخفق ، أو أب شيخ يتأهب لأن يمد لك ذراعيه ! أليس كذلك ؟

جاستون : (كالطفل) أنت تعـرفين ، ما أكثر ما رأيت أولئك العجائز الطيبات يخطئن وهن يقبلننى وأنوفهن بليلة ؛ وهؤلاء الشيوخ الذين التبس الأمر عليهم يحكّون وجهى بلحاهم .. تخيلى انسـانا له أربعمائة أسرة ، ياسيدتى الدوقة . أربعمائة أسرة تصر على تدليله . هذا كثير !

الدوقة : فما بالك بأطفال صـغار ، فى غاية اللطف ! أطفال ينتظرون أباهم . أتجرؤ على القول بأنك لا تجد نفسك مدفوعا لتقبيل هؤلاء الصغار ، وجعلهم يتقافزون على ركبتيك .

جاستون : ذلك عمل مرهق يا سيدتى الدوقة . فأحدثهم سنا ، لابد يناهز العشرين .

الدوقة : آه ! هوسپار .. انه يريد تدنيس أقدس الأشياء!

جاستون : (فجأة حالما) أطفال .. كان يمكن أن يكون لدىّ الآن أطفال صغار ، حقيقيون ، لو قد تركنى الناس أعيش .

الدوقة : انك لتعلم أن هذا كان محالا !

جاستون : لماذا ؟ لأننى لم أكن أتذكر شيئا قبل ذلك المساء من ربيع سنة ١٩١٨ ، حينما كشفوا وجودى فى احدى محطات الفرز ؟

الدوقة : بالضبط ، وا أسفاه ! ..

جاستون : لقد خاف الناس بلا شك حين رأوا رجلا يعيش بلا ماض . ان أمر الأطفال اللقطاء يثير ارتيابهم.. ومع ذلك فقد أتيح لهم أن يلقنوهم بعض المفاهيم الصغيرة . وأما فى حالة رجل ، رجل ناضج ، ليس له وطن تقريبا ، وليس له مسقط رأس ، ولا تقاليد ، ولا اسم .. فخسأ يالعار !

الدوقة : يا صغيرى جاستون ، كل شىء يثبت لنا ، على كل حال ، أنك كنت فى حاجة الى تربية . لقد سبق لى أن نهيتك عن استخدام هذه الكلمة .

جاستون : كلمة عار ؟

الدوقة : لا ..

(تتردد) .

الأخرى .

جاستون : (يواصل حلمه) ولا صحيفة سوابق أيضا ..

هل فكرت فى ذلك ، يا سيدتى الدوقة ؟ انك تأتمنيننى على فضياتك عند تناول الطعام ، وفى القصر تقع غرفتى على قيد خطوتين من غرفتك .. فماذا لو كنت سفاحا قد قتلت ثلاثة من الناس ؟

الدوقة : عيناك تقولان لى كلا .

جاستون : ما أسعد حظك اذ تنالين شرف افضائهما اليك بأسرارهما ! وأما أنا ، فأنظر اليهما أحيانا حتى يدركنى الشرود وأنا أحاول أن أجد فيهما بعض ما رأتاه وما لا تريدان أن ترداه . انى لا أرى فيهما شيئا .

الدوقة : (مبتسمة) ومع ذلك ، فأنت لم تقتل ثلاثة ، اطمئن . ولمعرفة هذا ، لا حاجة الى العلم بماضيك .

جاستون : لقد وجدونى أمام قطار أسرى قادم من ألمانيا . اذن كنت فى الميدان . فلابد أننى رميت ، كالآخرين ، بعض تلك الأشياء التى ما أقسى أن تتلقاها على جلودنا البائسة التى تدميها شوكة وردة . أوه ! انى أعرف نفسى ، فانى لا أحسن التصويب . ولكن فى الحرب كانت

القيادة تعتمد على كثرة الرصاص لا على مهارة المقاتلين . فلنأمل رغم ذلك أننى لم أصب ثلاثة رجال .

الدوقة : بماذا تهرف الآن ؟ انى أريد أن أعتقد أنك كنت بطلا ، على العكس . أنا كنت أعنى رجالا قتلوا فى الحياة المدنية .

جاستون : البطل ، موضع التباس أيضا فى وقت الحرب . فالنمام ، والبخيل ، والحسود ، بل والجبان ، كان مقضيا عليهم حسب اللوائح بأن يكونوا أبطالا جنبا الى جنب ، وتقريبا بنفس الطريقة .

الدوقة : اطمئن . ان شيئا لا يمكن أن يخدعنى يقول لى — لى أنا — انك كنت من أبناء أسرة راقية جدا .

جاستون : هذا مرجع هزيل لمعرفة ما اذا كنت قد ارتكبت شرا ! لابد أننى اصطدت .. ان أبنـاء الأسر الراقية يزاولون رياضة الصيد . فلنأمل أيضا أننى كنت صيادا يضحك منه الجميـع وأننى لم أصب ثلاثة حيوانات .

الدوقة : آه ! يا عزيزى ، لابد من حب جم لكى يصغى اليك المـرء دون أن يضحك . انك تبالغ فى ملاحظاتك الدقيقة .

جاستون : كم كنت مرتاح البال فى الملجأ .. كنت قد ألفت نفسى ، كنت أعـــرف نفسى معـرفة وثيقة ، وهأنذا يجب علىّ أن أفارق نفسى ، وأن أجـد نفسا أخرى وأرتديها مثل سترة قديمة . هل ســأتعرف نفسى غـــدا ، أنا الذى لا أشرب الا الماء ، فى ابن وقاد المصابيح ، الذى لا يكتفى بأقل من أربعة لترات من النبيذ الأحمر القراح يوميـا ؟ أو ، رغم نفاد صبرى ، فى ابن تاجرة الخردوات التى قد جمعت وصنّفت ألفا ومائتى نوع من الأزرار ؟

الدوقة : أنا ان كنت قد حرصت على أن نبدأ بآل رينو هؤلاء ، فذلك لأنهم أسرة راقية جدا .

جاستون : هذا يعنى أن لديهم بيتا جميلا ، ورئيس خدم حسن المظهر ، ولكن أى ولد كان لهم ؟

الدوقة : (وهى ترى رئيس الخدم داخلا) سنعرف ذلك فى الحال .

(توقفه بحركة) .

لحظة ، يا صديقى ، قبل أن تدخل سادتك .
جاستون ، هلاّ انصرفت برهة الى الحديقة ، سوف نستدعيك .

جاستون : طيب ، يا سيدتى الدوقة .

الدوقة : (وهى تخاطبه على حدة) ثم ، أرجوك ، لا تخاطبنى الآن بلقب سيدتى الدوقة . هذه كلفة كانت تصلح أيام لم تكن سوى مريض يعالجه ابن أخى .

جاستون : حسنا ، يا سيدتى . .

الدوقة : هيا . ولا تحاول أن تنظر من ثقب الباب .

جاستون : (وهو ينصرف) لست متعجلا . لقد سبق لى أن رأيت ثلاثمائة وسبعا وثمانين أسرة .

الدوقة : (ناظرة اليه وهو يخرج) ولد لذيذ ! آه ، يا أستاذ ، عندما يخطر على بالى أن الدكتور « بوتفان » كان يستخدمه فى عزق الخس ، أرتعش !

(لرئيس الخدم) .

تستطيع أن تدخل سادتك ، يا صديقى .

(تأخذ ذراع هوسپار) .

أنا فى شدة التأثر ، يا عزيزى . أحس أنى مقدمة على صراع لا رحمة فيه ضد القدر ، ضد جميع القوى الخفية فى الدنيـــا .. لقد لبست ثوبا أسود ، فقد رأيت أن ذلك أنسب ما يليق .

(يدخل آل رينو . من كبار أثرياء الريف)

مدام رينو : (على الباب) أترون ، لقد قلت لكم ! انه ليس هنـــا .

هوسپار : لقـــد قلنا له بكل بساطة أن يبتعد لحظة ، يا سيدتى .

چورج : اسمحا لى بأن أقدم نفسى . جورج رينو .

(مقدما سيدتين تصحبانه) .

أمى وزوجتى .

هوسپار : لوسيان هوسپار . أنا وكيل الدعوى المكلف بمصالح المريض المادية . السيدة الدوقة ديپون — ديفور ، رئيسة مختلف الجمعيات الخيرية فى « پونتوبرون » ، وقد تفضلت ، فى غيـــاب ابن أخيها الدكتور چيبلان ، الذى تعذر عليه أن يغادر الملجأ ، باصطحاب المريض .

(تحيات) .

الدوقة : نعم ، أنا ساهمت — بكل قواى الضعيفة — فى عمل ابن أخى . لقد بذل نفسه فى هذه المهمة وبأى عزيمة ، وأى ايمان ! ..

مدام رينو : سوف نحفظ له امتنانا أبديا على ما أولى صغيرنا چاك من عناية ، يا سيدتى .. وما كان أسعدنى لو استطعت أن أقول له ذلك شخصيا .

الدوقة : أشكرك ، يا سيدتى .

مدام رينو : ولكنى أسألكما المعذرة .. تفضلا بالجلوس . يا لها من لحظة مؤثرة ..

الدوقة : ما أشد ما أفهمك ، يا سيدتى !

مدام رينو : تصـــورى يا سيدتى الى أى حـــد فعلا نفد صبرنا .. لقد انقضت سنتان الآن منذ ذهبنا الى الملجأ للمرة الأولى ..

چورج : وبالرغم من مطالباتنا المتصلة ، لم يكن لنا بد من الانتظار حتى اليوم لكى نحصل على هذه المقابلة الثانية .

هوسپار : لقد كان عدد الملفات كبيرا جدا ، يا ســيد . تصور أنه كان فى فرنسا أربعمائة ألف مفقود . أربعمائة ألف أسرة ، وقل من يقبل التخلى عن الأمل ، صدقنى .

مدام رينو : ولكن سنتان ، يا سيدى ! .. ثم ليتك عرفت فى أية ظروف أرونا اياه اذ ذاك .. أظن أنك بريئة من ذلك يا سيدتى ، وبالمثل السيد ابن أخيك ، لأنه لم يكن هو مدير الملجأ فى تلك الأيام .. لقد مر المريض بجانبنا وسط تدافع الناس دون أن نستطيع حتى أن نقربه . كنا حوالى أربعين شخصا معا .

النوقة : مقابلات الدكتور بونفان كانت فضائح حقا !

مدام رينو : فضائح ! .. أوه ! لقد أصررنا .. كان على ولدى ، وقد استدعته أعماله ، أن يعود ، وأما أنا وكنتى ، فقد مكثنا فى الفندق ، على أمل أن نقربه . وباغداق النقود ، دبر لنا أحد الحراس مقابلة دامت بضع دقائق ، كانت للأسف بلا نتيجة . ومرة أخرى ، استطاعت كنتى أن تحل محل متعهدة الكساء التى مرضت . فرأته طول فترة ما بعد الظهر ، ولكن دون أن تتمكن من أن تقول له شيئا ، اذ لم تتح لها فرصة الانفراد به .

النوقة : (لثالثتين) ما أشبه هذا بالروايات الخيالية !

ولكن لو انكشف أمرك ؟ لعلك تعرفين الخياطة على الأقل ؟

فالنتين : نعم يا سيدتى .

الدوقة : ولم تستطيعى أبدا أن تنفردى به ؟

فالنتين : لا ، يا سيدتى ، أبدا .

الدوقة : آه ! ذلك الدكتور بونفان ، ذلك الدكتور بونفان مذنب كبير !

چورج : الذى لا أجد له تفسيرا ، أنه رغم جميع الأدلة التى أوردناها ، كان من الممكن التردد بين عدة أسر .

هوسپار : هذا شىء غريب ، نعم ، ولكن تصوروا أنه بعد تحقيقاتنا الأخيرة ، التى كانت فى غاية الدقة ، ما زالت هناك — معكم — خمس أسر تكاد تتساوى فى الفرص ..

مدام رينو : خمس أسر ، يا سيدى ، هذا محال ! ..

هوسپار : بلى ، يا سيدتى ، للأسف ! ..

الدوقة : (تقرأ فى مفكرتها) أسر بريجو ، بوجران ، جريجو ، لوجروپاتر ، ومادينسال . ولكن ينبغى أن أقول لكم توا اننى اذا كنت قد بدأت بكم ، فذلك لأنى أحمل لكم كل عطفى .

مدام رينو : انى أشكرك ، يا سيدتى .

الدوقة : لا ، لا ، لا تشكرينى . انى أقول لك ما أشعر به . لقد أوحت الىّ رسالتك ، من مستهلها ، بأنكم أهل لطف ، وهو احساس تؤيده لقيانا من جميع الوجوه .. ومن بعدكم ، على أى حال ، يعلم الله فى أى طبقة سنتردّى ! هنـاك بائعة لبن ، ووقاد مصابيح ..

مدام رينو : وقاد مصابيح ؟

الدوقة : وقاد مصابيح ، نعم ، يا سيدتى ، وقاد مصابيح ! اننا نعيش فى عصر لم يسمع به أحد ! هؤلاء الناس لديهم كل أنواع الغرور .. أوه ! ولكن لا تخافوا ، فما دمت على قيد الحياة لن يعطى جاستون لوقاد مصابيح !

هوسپار : (لجورج) نعم ، كان قد أعلن أن هذه الزيارات ستجرى بترتيب ورود الطلبات — وهذا ما كان منطقيا — ولكن ، لما كنتم على هذا النحو آخر الناس ، شاءت السيدة الدوقة ديپون — ديفور ، فى شىء من التهور بلا شك ، أن تتخطى الحدود المرسومة ، وأن تبدأ بالحضور لديكم .

مدام رينو : فيم التهور ؟ انى أتخيل أن القائمين على أمر المريض أحرار ..

هوسپار : أحرار ، نعم ، ربما ؛ ولكنك لا تستطيعين أن تعرفى ، يا سيدتى ، أى سيل جارف من الأهواء — المغرضة فى أكثر الأحيان ، للأسف ! — يحوط جاستون . ان معاشه بوصفه جنـديا مصابا ، ولم يتح له أن يقبضه قط ، يجعله على رأس ثروة حقيقية صغيرة .. تصورى أن بقايا حساب هذا المعاش وأرباحه المركبة تبلغ اليوم أكثر من مائتين وخمسين ألف فرنك .

مدام رينو : كيف تستطيع تلك المسألة المالية أن تتدخل فى توجيه مصير انسان ؟

هوسپار : انها تستطيع ، لسـوء الحظ يا سـيدتى . اسمحى لى ، فى هذا الشأن ، بكلمة عن الوضع القانونى للمريض ..

مدام رينو : فيما بعد ، يا سيد ، فيما بعد ، أرجوك ..

الدوقة : ان الأستاذ هوسپار يحمـل نصوص القـوانين محل القلب ! ولكن بما أنه لطيف جدا ..

(تقرص هوسپار فى استخفاء) .

فسيذهب ليأتينا بجاستون فى الحال !

هوسپار : (يقلع عن محاولة المقاومة) انى أنزل على رغبتكن ، يا سيداتى . أسألكن فقط ألا تصرخن وألا ترتمين عليه . فهذه التجارب التى تجددت مرارا تجعله فى حالة عصبية مؤلمة غاية الألم .

(يخرج) .

النوقة : لابد أنك متلهفة الى رؤيته ، يا سيدتى .

مدام رينو : هيهات أن يكون لأم غير هذا الشعور ، يا سيدتى .

النوقة : آه ! أنا متأثرة من أجلك !

(لفالنتين) .

وأنت قد عرفت بالمثل مريضنا — أعنى هذا الذى تظنون أنه مريضنا — يا سيدتى ؟

ڤالنتين : أجل ، يا سيدتى . لقد قلت لك اننى ذهبت الى الملجأ .

النوقة : هذا صحيح ! هل شرد بالى ..

مدام رينو : جورج ، ابنى الأكبر ، تزوج ڤالنتين وهى صبية ، فجمعت بين الصغيرين زمالة حقيقية . لقد كانا يتبادلان مودة كبيرة ، أليس كذلك يا جورج ؟

چورج : (فى برود) كبيرة ، يا أمى .

الدوقة : ان زوجة الأخ ، كالأخت تقريبا ، أليس كذلك يا سيدتى ؟

فالنتين : بالتأكيد ، يا سيدتى .

الدوقة : لابد أنك سعيدة الى حد الجنون بلقائه .

(فالنتين ، متضايقة ، تنظر الى جورج الذى يتولى عنها الجواب) .

چورچ : سعيدة جدا . كأخت .

الدوقة : انتى صاحبة خيال كبير .. لقد تخيلت — هل أقول لكم ذلك ؟ — وجود امرأة يكون قد شغف بحبها لكى تتعرفه وتبادله قبلة غرام ، هى الأولى عند خروجه من ذلك القبر . ولكنى أرى أن هذا لن يكون .

چورچ : (واضحا) كلا ، يا سيدتى . هذا لن يكون .

الدوقة : فليذهب حلمى الجميل !

(تمضى الى النافذة) .

ولكن ما أشد بطء الأستاذ هوسپار ! .. ان حديقتكم واسعة جدا وهو ضعيف البصر بعض الشيء : أراهن على أنه قد تاه .

فالنتين : (بصوت خافت لجورج) لماذا تنظر الىّ هكذا ؟ لن تخرج الآن كل حكاياتك القديمة ؟

چورج : (فى جد) عنـدما غفرت لكما ، محوت كل شىء .

فالنتين : اذن لا ترمنى بنظرة شزراء كلما تنطق هـذه العجوز المجنونة بعبارة !

مدام رينو : (وهى لم تسمع ولا يبدو عليهـا أنهـا تعلم شيئا من هذه القصة) يا لها من صبية طيبة ، فالنتين . انظر ، يا جورج ، انها شديدة التأثر .. حسن أن تتذكر هكذا صغيرنا چاك ، أليس كذلك يا جورج ؟

چورج : نعم ، يا أمى .

الدوقة : آه ! ها هو ذا !

(هوسپار يدخل بمفرده) .

كنت متأكدة من ذلك ، أنت لم تجده ؟

هوسپار : بلى . ولكنى لم أجرؤ على أن أزعجه .

الدوقة : ما معنى هذا ؟ ماذا كان يفعل ؟

هوسپار : كان واقفا أمام تمثال .

فالنتين : (تصيح) تمثال ديانا آلهة الصيد ، الذى يتوسط مقعدا دائريا فى أقصى الحديقة ؟

هوسپار : نعم . انظروا ، يمكن رؤيته من هنا .

(الجميع ينظرون) .

چورج : (فجأة) وبعد ، على أى شىء يدل هذا ؟

الدوقة : (لهوسپار) شىء مثير ، يا عزيزى !

ڤالنتين : (فى رقة) لست أدرى . أظن أننى أتذكر أنه كان يحب كثيرا هذا التمثال ، هذا المقعد ..

الدوقة : (لهوسپار) اننا نحترق ، يا عزيزى ، اننا نحترق .

مدام رينو : أنت تدهشيننى ، يا صغيرتى ڤالنتين . هذا الركن من الحديقة كان جزءا من أملاك مسيو دوباتنون . لقد اشترينا بالفعل هذه القائمة من الأرض أيام چاك ، ولكننا لم نهدم الحائط الا بعد الحرب .

ڤالنتين : (يساورها الاضطراب) لا أدرى . لابد أنك على حق .

هوسپار : كان مظهره من الغرابة وهو واقف أمام هذا التمثال بحيث لم أجرؤ أن أزعجه قبل أن آتى لأسألكم هل لهذه الواقعة معنى . وما دام ليس لها معنى ، فسأذهب لآتى به .

(يخرج) .

چورج : (بصوت خافت لڤالنتين) هل على هذا المقعد كنتما تلتقيان ؟

ڤالنتين : لا أعلم ماذا تريد أن تقول .

الدوقة : سيدتى ، برغم تأثرك الواجب ، أستحلفك أن تظلى متجلدة .

مدام رينو : اتكلى على ، يا سيدتى .

(يدخل هوسپار مع جاستون . مدام رينو تتمتم) .

آه ! انه هو نفسه ، هو نفسه ..

الدوقة : (وهى تذهب نحو جاستون فى حركة مسرحية كبيرة وتحجب عنه الآخرين) جاستون ، حاول ألا تفكر فى شىء ، اترك نفسك على سجيتها ، دون بذل مجهود . أمعن النظر فى جميع الوجوه ..

(صمت ، الجميع جامدون . يمر جاستون أولا أمام جورج ، وينظر اليه ، ثم مدام رينو . وأمام ڤالنتين ، يتوقف لحظة . تتمتم فى غير جلاء) .

فالنتين : حبيبى ..

(ينظر اليها دهشا ، ولكنه يمر ويستدير نحو الدوقة ، لطيفا ، مباعدا ما بين يديه فى حركة عجز) .

جاستون : (فى أدب) متأسف ..

تسقط الستارة

اللوحة الثانية

باب من طراز لويس الخامس عشر مغلق مصراعاه ، قد اجتمع أمامه خدم آل رينو ، يتهامسون . الطاهية تجلس القرفصاء لتنظر من ثقب الباب ؛ والآخرون ملتفون حولها .

الطاهية : (للآخرين) انتظروا ، انتظروا .. الجميع ينظرون اليه كأنه حيوان عجيب . والولد المسكين لا يدرى أين يجلس .

السائق : أرينى ..

الطاهية : انتظر ! انه قام فجأة . وقلب فى قيامه فنجانه . يبدو عليه أنه ضاق بأسئلتهم .. هو ذا السيد جورج يأخذه على جنب الى الشباك . انه يمسكه من ذراعه ، بلطف ، كأن شيئا لم يحدث ..

السائق : يا خبر ! ..

جولييت : آه ! لو سمعتموه ، السيد جورج ، عندما اكتشف خطاباتهما بعد الحرب ! .. مع ذلك ، يظهر

عليه أنه وديع كالحمل . انمـا ، أنا أستطيع أن أؤكد لكم أنه عمل البدع !

الوصيف : تريدين رأيي : لقد كان على حق ، هذا الرجل .

چولييت : (غاضبة) نعم ؟ كان عـلى حق ؟ هل ينهش الانسان الأموات ؟ تظن أنت أن نهش الأموات شيء نظيف ؟

الوصيف : كان عـلى الأموات ألا يبدأوا بأن ينتهكوا شرفنا !

چولييت : آه منك ! منذ تزوجنا ، لا توجد غير هـذه الكلمة فى فمك ! ليس الأمـوات هم الذين ينتهكون شرفك . انهم مساكين ممنوعون من هذا ، بل أولئك هم الأحياء . أما الأموات ، فليس لهم شأن بحكايات الأحياء .

الوصيف : يا سلام ! على هذا يكون الأمر مريحا جـدا . تصنعين زوجا منهوك الشرف ، ثم هيا ! لا من رأي ولا من عرف ، راحت عليـك ! يكفى أن يموت الواحد منهم .

چولييت : طبعا ! أن يموت الواحد ، هذا شيء صعب !

الوصيف : وماذا عن انتهاك الشرف ؟ ..

چولييت : أوه ! أنت تسرف فى الكلام عنه ، وسينتهى هذا بأن يصيبك .

الطاهية : (وقد دفعها السائق) انتظر ، انتظر . هم يذهبون جميعا الى آخر الحجرة الآن ، ويعرضون عليه صورا ..

(وهى تخلى مكانها) .

يا للأسف ! ثقوب أبواب زمان ، كانت العين ترى منها ، أما هذه الأقفال الحديثة .. فالأمر بسيط : على الناظر أن يقلع عينيه .

السائق : (منحنيا بدوره) انه هو ! انه هو ! أنا أعرف سحنته القذرة ، هذا الولد الدون !

چولييت : قل لى ، لماذا تقول هذا ، أنت ؟ اقفل أنت فمك القذر !

الوصيف : ولماذا تدافعين عنه ، أنت ؟ ألا تستطيعين أن تفعلى كالآخرين ؟

چولييت : أنا ، أنا كنت أعزه ، السيد چاك . ما قولك فى هذا ، أنت ؟ أنت لم تعرفه . أما أنا ، فكنت أعزه .

الوصيف : يعنى ماذا ؟ كان سيدك . كنت تمسحين له حذاءه .

چولييت : انما كنت أعزه ، ماذا ؟ انه بخلاف الناس .

الوصيف : مفهوم ! مثل أخيه .. بهيمة عظيمة !

السائق : (مخليا مكانه لجولييت) أرذل ، يا شيخ ، أرذل ! كم جعلنى أنتظر حتى الساعة الرابعة صباحا أمام الحانات .. وفى الفجر ، بعد أن تتجمد أنت من البرد ، كان سيادته يخرج ، محتقن الوجه ، ورائحة الخمر تفوح منه على بعد ثلاثة أمتار ، ويأتى سيادته ليتقيأ على وسائد العربة .. آه ! الدون !

الطاهية : كلامك فى محله .. كم مرة غمست يدى فى ذلك ، أنا التى أكلمك ! وعمر سيادته ثمانى عشرة سنة .

السائق : والعيدية كانت شتائم .

الطاهية : وضرب ! أنت تذكر ، فى تلك الأيام كان فى المطبخ صبى مسكين ، كل مرة كان يراه فيها ، كان لابد يدعك له أذنيه أو يخبطه برجله .

السائق : ومن غير سبب ! كان ولد دون صحيح . ولما علمنا أن عمره انقصف سنة ١٩١٨ ، نحن

لسنا شرا من الناس ، ولكنا قلنا انه يستحق ذلك .

رئيس الخدم : هيا ، هيا ، الآن يجب الانصراف .

السائق : انما ، ماذا ؟ .. ألست من رأينا أنت ، يا سيد « چول » ؟

رئيس الخدم : أنا لو تكلمت ، أستطيع أن أقول عنه أكثر منكم ، هيا ! .. لقد سمعت شجارهم على المائدة . بل كنت هناك عندما رفع يده على السيدة والدته .

الطاهية : على والدته ! .. وهو فى الثامنة عشرة ! ..

رئيس الخدم : والحكايات الصغيرة مع السيدة ڤالنتين ، يمكننى أن أقول اننى أعرفها ، بالتفصيل ..

السائق : اذن ، اسمح لى أن أقول انك كنت فى منتهى الطيبة لما أغمضت عينيك ، يا سيد « چول » .

رئيس الخدم : حكايات السادة من شأن السادة ..

السائق : صحيح ، لكن مع ولد صغير من هذا النوع .. أفسحى قليلا كى أرى شكله الآن .

چولييت : (تاركة مكانها) آه ! هو ، هو ، أنا متأكدة .. السيد چاك ! أتعرف ؟ لقد كان شابا جميلا فى تلك الأيام . جميلا بحق . وممتازا !

رئيس الخدم : دعك من هذا ، بين الشبان من هم أجمل ، وأصغر !

چولييت : صحيح . من عشرين سنة تقريبا . هذا شيء صعب . أتظن أنه سيجدنى قد تغيرت كثيرا ؟

رئيس الخدم : وماذا يهمك من هذا ؟

چولييت : أبدا ، لا شيء ..

رئيس الخدم : (بعد تفكير ، بينما يتغامز سائر الخدم من وراء ظهره) ألا قولى أنت .. ما السر فى أنك تتنهدين منذ علمت أنه ربما يعود ؟

چولييت : أنا ، لا لشيء .

(يتضاحك الآخرون) .

رئيس الخدم : ما السر فى أنك تسوين شكلك أمام المرآة وتسألين عما اذا كنت تغيرت ؟

چولييت : أنا ؟

رئيس الخدم : كم كان عمرك عندما سافر للحرب ؟

چولييت : خمس عشرة سنة .

رئيس الخدم : ساعتى البريد ، هل كان أول رجل فى حياتك ؟

چولييت : بدليل ما قلت لك انه كممنى وناولنى أدوية منومة ..

(يتضاحك الآخرون) .

رئيس الخدم : أنت متأكدة من أنه كان الأول الحقيقى فى حياتك ؟

چولييت : أهذا سـؤال ؟ تلك أشياء تتذكرها البنت . بل وأنه تمهل فى وضع علبته ، ذلك الكاسر ، وأن كل الخطابات وقعت فى المطبخ ..

السائق : (وما زال ينظر من ثقب الباب) هذه القالانتين، لا تحول عنه عينيها .. انى أراهنكم على أنه لو مكث هنا ، لتمتع الأب جورج بزوج آخر من القرون يقدمه له أخوه .

رئيس الخدم : (يحتل مكانه) شىء منفر .

السائق : لو كان يحبهم ، السيد « چول » بهذا الشكل ..

الوصيف : انما هم يضحكوننى بقولة « فقدان الذكرى » ! بالفهم ، اذا كانت هذه هى عائلة هذا الشـاب لكان عرف أهله منـذ الصبـاح . ان « فقدان الذكرى » لا يبقى طويلا .

الطاهية : غير أكيد ، يا صغيرى ، غير أكيد . أنا التى أكلمك ، أحيانا أعجز عن أن أتذكر هل ملّحت مرقى أم لا .

الوصيف : انما .. الأهل !

الطاهية : أوه ! ما كان يهتم بأهله ، هذا الولد المفسود ..

رئيس الخدم : (على ثقب الباب) أما عن أنه هو ، فانه هو ! أقطع رأسى لو لم يكن هو .

الطاهية : ولكن ، بما أنهم يقولون ان هناك خمس عائلات أخرى ، لديها نفس الأدلة .

السائق : أتريدون أن أقـــول لكم أنا أحسن كلمة فى الموضوع ؟ ليس من المرغوب فيه لا بالنسبة لنا ولا بالنسبة لأحد ألا يكون ذلك الولد الدون قد مات ! ..

الطاهية : آه ! لا اذن ..

چولييت : أريد أنا أن أراك فى محله ، وقد مت ..

رئيس الخدم : هذا ، بالتأكيد ، شىء لا تتمناه للناس ، ولا له ، طبعا ! لأن الحياة التى تبدأ بهذا الشكل ، لا تنتهى أبدا نهاية خير .

السائق : ثم انه قد أخذ يحب الحياة الهادئة ، الخالية من المشاكل ، فى ملجئه . ماذا عساه أن يعلم من أخبار ، ذلك الأخ ؟ .. حكايته مع ابن جرانشان ، حكاية ثالنتين ، حكاية الخمسمائة ألف فرنك ، وما لا نعرفه من الحكايات الأخرى ..

رئيس الخدم : هذا مؤكد . انى أفضل أن أكون فى مكانى لا فى مكانه .

الوصيف : (ينظر من ثقب الباب) انتبهوا ، ها هم يقومون! سيخرجون من باب الردهة .

(يتفرق الخدم) .

چولييت : (وهى خارجة) سيدى چاك ، مع ذلك ..

الوصيف : (يتبعها ، ويقول مرتابا) ماذا تقصدين ؟ سيدى چاك ؟

چولييت : أبدا ، لا شىء .

(خرجوا) .

تسقط الستارة

اللوحة الثالثة

غرفة چاك رينو ، وما يفضى اليها من الممرات المظلمة الطويلة فى هذه الدار العتيقة من دور أهل الثراء . من ناحية ، ردهة مبلطـــة ينتهى بها سلم حجرى عريض ذو سياج من الحديد المشغول . يظهر من السلم مـــديم رينو وجـــورج وجاستون ويجتازون الردهة .

مدام رينو : عفوا ، انى أسبقكما . ها هنا ترى الممر الذى كنت تسير فيه لتذهب الى غرفتك .

(تفتح الباب) .

وهذه هي غرفتك .

(دخل ثلاثتهم الغرفة) .

أوه ! يا للاهمال ! لقد أمرت مع ذلك بفتح خشب هذه النوافذ .

(تفتحها ؛ يغمر النور الغرفة ؛ الأثاث من صميم طراز سنة ١٩١٠) .

جاستون : (ناظرا حوله) غرفتى ...

مدام رينو : لقد أردت أن تزخرفها حسب تصميماتك . كم كان ذوقك عصريا !

جاستون : يبدو أننى كنت أخص بحبى تلك الأزهار .

چورچ : أوه ! لقد كنت جريئا جدا ، وأنت ما زلت فى ذلك الطور !

جاستون : هذا ما أراه .

(يلاحظ قطعة أثاث مضحكة) .

ما هذا ؟ شجرة فى مهب العاصفة ؟

چورچ : لا ، انه حامل لدفاتر الموسيقى .

جاستون : هل كنت موسيقيا ؟

مدام رينو : كنا نود أن نعلمك « الكمان » ، ولكنك لم تقبل أبدا . وكان غضبك يحتدم عندما كنا نريد أن ندفعك الى دراسة الموسيقى . كنت تبقر آلاتك بركلها . ولم يقاوم الا هذا الحامل .

جاستون : (يبتسم) ليته لم يقاوم .

(يتجه الى صورة) .

هذا هو ؟

مدام رينو : نعم ، هذا أنت ، فى الثانية عشرة من عمرك .

جاستون : كنت أتصور نفسى أشقر ، حييا .

چورج : كان شعرك كستنائيا داكنا جدا . وكنت تلعب كرة القدم طول النهار ، وتكسّر كل شيء .

مدام رينو : (وهى تريه حقيبة ضخمة) انظر هذا الذى أمرت بانزاله من المخزن ..

جاستون : ما هذا ؟ حقيبتى القديمة ؟ انكم سوف تنتهون بأن تجعلونى أعتقد أنى عشت فى عهد « عودة الملكية » ..

مدام رينو : لا ، يا أبله . انها حقيبة العم جوستاف ، انها لعبك .

جاستون : (يفتح الحقيبة) لعبى ! .. كان لى لعب ، كباقى الناس ؟ هذا صحيح ، مع أنى لم أعد أعلم أننى كنت أقتنى لعبا .

مدام رينو : انظر ، هذه نبلتك .

جاستون : نبلة .. بل يبدو على هذا الشيء أنه نبـــلة لا يستهان بها ..

مدام رينو : كم كنت تقتل بها من العصافير ، يا الهى ! لقد كنت وحشا حقا .. أو تعلم ، انك ما كنت تقنع بعصافير الحديقة .. لقد كان لدىّ قفص به

عصافير ثمينة ، ذات مرة ، دخلت فيه وقتلتها كلها .

جاستون : العصافير ؟ عصافير صغيرة ؟

مدام رينو : نعم ، نعم .

جاستون : كم كان عمرى ؟

مدام رينو : ست سنين ، ربما تسع سنين ..

جاستون : (يهز رأسه) لست أنا .

مدام رينو : بلى ، بلى ..

جاستون : لا . فى السابعة من عمرى كنت أذهب الى الحديقة ومعى فتات الخبز ، بالعكس ، وأنادى العصافير لكى تأتى وتنقر فى يدى .

چورج : يا ويلها لو جاءت ، كنت تلوى عنقها .

مدام رينو : والكلب الذى كسر له رجلا بحجر ؟

چورج : والفأر الذى كان يجره فى طرف خيط ؟

مدام رينو : والسناجيب ، وبنات عرس فيما بعد ، والظربى ، كم قتلت منها ، يا الهى ، تلك الحيوانات الصغيرة ! كنت تحنط أجملها ، هناك مجموعة كاملة منها ، ينبغى أن آمر باخراجها .

(تنقب فى الحقيبة) .

هذه سكاكينك ، وبندقياتك الأولى ..

جاستون : ألا توجـــد لعب « عرائس « پوليشينيل » ، و « فلك نوح » ؟

مدام رينو : منذ كنت طفلا صغيرا ، لم ترغب الا فى لعبك العلمية . ها هى كراتك الأرضـــية وأنابيب الاختبـــار والمغناطيسات الكهربائية وأنابيب التقطير ورافعتك الميكانيكية .

چورج : كنا نريد أن نجعل منك مهندسا لامعا .

جاستون : (يقهقه) منى ؟

مدام رينو : ولكن كتب الجغرافيا كانت أشد ما يروقك . كنت على كل حال الأول فى الجغرافيا دائما ..

چورج : فى سن العاشرة ، كنت تسمّع أسماء المحافظات من الأول للآخر ، وبالعكس !

جاستون : وبالعكس .. صحيح أنى فقدت الذاكرة .. ومع ذلك حاولت أن أتعلمها من جـــديد فى الملجأ ، ولو من الأول للآخر فقط .. لنـدع حقيبة المفاجآت هذه . أظن أنها لن تفيـــدنا بشىء . فلست أتصور نفسى على الاطلاق هكذا فى طفولتى .

(أغلق الحقيبة ، وراح يهيم فى الغرفة ، يلمس الأشياء ، ويجلس فى المقاعد الكبيرة . يسأل فجأة) .

كان له صديق ، ذلك الولد الصغير ؟ صبى آخر لا يفارقه ، ويبادله الأشجان وطوابع البريد ؟

مدام رينو : (مسترسلة) أجل ، أجل . كان لك كثير من الرفاق . طبعا ، أصحابك فى المدرسة ، وفى الجمعية ! ..

جاستون : نعم ، انما .. لا أعنى الزملاء ، بل صديقا .. أترين ، قبل أن أسألك عمن عرفت من النساء ..

مدام رينو : (مستاءة) أوه ! لقد كنت صغير السن جدا ، يا چاك ، عندما رحلت !

جاستون : سوف أسألك عنهن مع ذلك .. ولكن قبل هذا السؤال ، يبدو لى أهم جدا أن أسألك عن الصديق الذى اخترته .

مدام رينو : انك تستطيع أن ترى صورهم جميعا فى فرق المدرسة . بعد ذلك ، كان هناك من تخرج معهم فى المساء .

جاستون : فمن هو الذى كنت أفضل الخـــروج معه ، وأحكى له عن كل شىء ؟

مدام رينو : لم تكن تفضل أحدا ، فى الواقع .

(تكلمت بسرعة ، بعد أن ألقت الى جورج نظرة مستخفية . جاستون ينظر اليها) .

جاستون : اذن لم يكن لابنك صديق ؟ خسارة . أعنى خسارة لو كشفنا أنه أنا . أعتقد أن الانسان ، حينما يصبح رجلا ، لا يمكنه أن يجد مصدرا للعزاء أكبر من صورة لطفولته تنعكس فى عينى صديق طفولته . بل وأعترف لكما بأننى من هذا الصديق الذى أتخيله كنت آمـــل أن أتلقى ذاكرتى — كما أتلقى خدمة عادية يقدمها لى بطبيعته .

چورج : (بعد تردد) أوه ! أقصد أن أقول .. صديقا ، أجل ، كان لك صديق وكنت تحبه حبا جما . بل واحتفظت به حتى سن السابعة عشرة .. اننا لم نحدثك عنه لأنها قصة أليمة جدا ..

جاستون : هل مات ؟

چورج : لا ، لا . لم يمت ، وانما افترقتما ، تخاصمتما .. نهائيا .

جاستون : نهائيا ، فى سن السابعة عشرة !

(برهـــة)

وهل عرفت سبب الخصام ؟

چورج : بشكل غامض ، بشكل غامض ..

جاستون : لم لم يسع أخـوك ولم يسع هـذا الفتى الى الالتقاء من ذلك الحين ؟

مدام رينو : انك تنسى أن الحرب قامت . ثم ، أنت عارف .. هذا ما حدث . لقد تشاجرتما من أجل شىء تافه ، تضاربتما كما يفعل الصبية فى هـذه السن .. ودون تعمد منك ، بلا شك ، أتيت حركة عنيفة .. حركة يؤسف لها خصوصا . دفعته من على السـلم . وفى أثنـاء سقوطه ، أصيب فى عموده الفقرى . واقتضى الأمر أن يمكث فى الجبس مـدة طويلة جدا ، ثم ظل مقعدا . انك تفهم الآن كم كان صعبا ، أليما ، حتى بالنسبة لك ، أن تحاول الالتقاء به .

جاستون : (بعد برهة) أفهم . وأين حدث هـذا ، هذا العراك ، فى المدرسة ، فى بيته ؟

مدام رينو : (بسرعة) لا ، هنا . لكن دعنا من الكلام فى

هذا الموضـــوع الفظيع ، فهو مما يحسن بك ألا تتذكره يا چاك .

جاستون : اذا اســـتعدت ذاكـــرتى فى شىء ، ينبغى أن أستعيدها فى كل شىء ، انكم تعلمون ذلك .. ان ماضى الانسان لا يباع له بالتجزئة . أين هو ذلك السلم ، أود أن أراه ؟

مدام رينو : هنا ، بجـــوار غرفتك يا چاك . ولكن ما فائدة ذلك ؟

جاستون : (لجورج) هل تسمح بأن ترشدنى ؟

چورج : ما دمت تريد ، ولكنى لا أرى حقا لماذا تريد أن تعاين هذا المكان ..

(ذهبوا الى الردهة)

مدام رينو : ها هو ذا ، هنا .

چورج : هنـــا .

جاستون : (ينظر حـــوله ، ينحنى على السياج) أين تعاركنا ؟

چورج : اننا لم نعرف على وجه التحديد . لقد روت لنا المشاجرة خادمة ..

جاستون : ليست هذه مشاجرة عادية .. انى أظن أنها روتها

بكثير من التفاصيل . أين تعاركنا ؟ فهـــذه البسطة فسيحة جدا ..

مدام رينو : لابد أنكما تعاركتما على الحافة تماما . وزلت رجله . ومن يدرى ، لعلك لم تدفعه قط .

جاستون : (مستديرا نحوها) اذا لم تكن المسألة على هذا النحو الا حادثة عارضة ، لماذا لم أذهب كل يوم لمرافقته فى غرفته وهـــو طريح الفراش ؟ وأتفق معه ، لكى يقل شـــعوره بالظلم ، كل عطلاتى أيام الخميس ، بدلا من الجـــرى فى الشمس ؟

چورج : انك تعرف ، كل واحد شرح المسألة عـــلى طريقته .. وتدخل فيها خبث الناس ..

جاستون : أى خادمة شاهدتنا ؟

مدام رينو : هل من الضرورى لك أن تعرف هذا ؟ انها على كل حال لم تعد فى البيت .

جاستون : من المؤكد أن هناك ســـواها لا يزالون فى الخدمة ، ممن عاصروا تلك الفترة . ســـوف أستجوبهم .

مدام رينو : أرجو ألا تولى ثقتك ما يثرثر به الخدم فى المطبخ .

سوف يروون لك أعظم الروايات ، بالتأكيد ، أولئك الخدم ، لو استجوبتهم . انك تدرى من هم هؤلاء الناس ..

جاستون : (مستديرا نحو جورج) أيها السيد ، أنا متأكد من أنك ستفهمنى ، أنت . انى لم أتعرف بعد شيئا لديكم .. والذى أنبأتمونى به عن طفولة أخيك يبدو لى أبعد شىء ممكن عما أعتقد أنه طبعى . ولكن — لعله التعب ، ولعله سبب آخر — لأول مرة ينتابنى نوع من الاضطراب وأنا أصغى لقوم يتحدثون عن ابنهم .

مدام رينو : آه ! يا صغيرى چاك ، لقد كنت واثقة ..

جاستون : لا ينبغى أن يحن قلبك ، وأن تسمينى قبل الأوان « صغيرى چاك » . اننا هنا للتحقيق ، كرجال الشرطة — بما يعهد فى الشرطة من الشدة وعدم الشعور اذا أمكن . ان هذا الاتصال بكائن غريب عنى تماما ، قد أكون مضطرا بعد لحظة لأن أقبله على أنه جزء من نفسى ، هذه الخطية الغريبة التى أعقدها الى

شبح ، شيء يكفيني أن أعانيه دون أن أكون مضطرا فوق ذلك الى النضال ضدكم . سوف أقبل كل تجربة ، وأسمع كل رواية ، ولكن صوتا فى نفسى يقول لى انتى قبل كل شيء يجب أن أعرف الحقيقة بشأن هذه المشاجرة . الحقيقة ، مهما كانت قاسية .

مدام رينو : (تبدأ ، مترددة) حسنا ، هذا ما حصل : من أجل حماقة شباب ، تبادلتما الضرب .. أنت تعرف كيف يستجيب الشبان للغيظ فى تلك السن ..

جاستون : (يقفها) لا ، الكلام لغيرك . تلك الخادمة ما زالت هنا ، أليس كذلك ، لقد كذبت الآن ؟

چورج : (فجأة ، بعد صمت) نعم ، ما زالت فى البيت .

جاستون : اطلبها ، من فضلك ، يا سيد . لماذا تتمادى فى التردد ، ما دمت تعلم يقينا أننى سوف أجدها وأستجوبها فى يوم من الأيام ؟

چورج : لقد كانت حماقة بالغة ، حماقة فظيعة !

جاستون : لست هنا لكى أعلم شيئا ممتعا . ومن ناحية أخرى ، اذا كانت هذه الواقعة هى التى تستطيع

أن تعيد الىّ ذاكرتى ، ليس لكم الحق فى اخفائها عنى .

چورج : ما دمت تريد ذلك ، أناديها .

(يدق الجرس) .

مدام رينو : ولكنك ترتعش يا چاك . أرجو ألا تكون مريضا ؟

جاستون : أرتعش ؟

مدام رينو : لعلك تحس بشىء يتضح الآن فى نفسك ؟

جاستون : لا . لا شىء سوى الليل ، أشد الليل ظلاما .

مدام رينو : فلماذا ترتعش اذن ؟

جاستون : أمر سخيف . ولكن ، من بين آلاف الذكريات المكتئة ، كانت ذكرى صديق هى التى أحن اليها بأعظم الشوق . لقد أقمت كل شىء على ذكرى هذا الصديق الخيالى . نزهاتنا التى شغفنا بها ، والكتب التى اكتشفناها معا ، وفتاة أحبها وأحبتها فى الوقت ذاته فنزلت له عنها وضحيت بها ، بل — وستضحكان من هذا — انى أنقذت حياته يوما فى زورق . اذن ، ان

كنت ابنكم ، أليس علىّ أن أعتـــاد حقيقة ما أبعدها عن حلمى ..

(دخلت چولييت) .

چولييت : سيدتى دقت الجرس ؟

مدام رينو : مسيو چاك يود أن يكلمك ، يا چولييت .

چولييت : أنا ؟

چورج : نعم . يود أن يستجوبك عن حادثة « مارسيل جرانشان » تلك المؤسفة التى شهدت دقوعها .

مدام رينو : انك تعرفين الحقيقة ، يا بنتى . وتعرفين أيضا أن مسيو چاك كان عنيف الطبع ، فما كان يضمر نية اجرامية .

جاستون : (يقاطعها مرة أخرى) لا تقولى لها شيئا ، من فضـــلك ! أين كنت يا آنسة ، عنـــدما وقع الحادث ؟

چولييت : على البسطة ، مع أولئك السادة ، يا سيد چاك .

جاستون : لا تسمينى بعد السيد چاك . كيف بدأت تلك المشاجرة ؟

چولييت : (تلقى نظرة الى آل رينو) يعنى ..

جاستون : (يتجه اليهما) هـــل تسمحان بأن تتركانى

بمفردى معها ؟ انى أشعر بأنكما تحرجانها .

مدام رينو : أنا على استعداد لكل ما تريد اذا كان فى ذلك ما يعيدك الينا يا چاك .

جاستون : (يرافقهما) سوف أناديكما فى الآخر .

(لجولييت ، عندما أصبحا وحدهما) .

اجلسى .

چولييت : أيسمح سيدى ؟

جاستون : (وهو يجلس قبالتها) ولنترك الكلفة جانبا ، أرجوك . فهى لن تستطيع الا مضايقتنا . ما عمرك ؟

چولييت : ثلاث وثلاثون سنة . انك تعلم هذا خير العلم ، يا سيد چاك ، اذ كان عندى خمس عشرة سنة حينما سافرت للميدان . لماذا تسألنى عن سنى ؟

جاستون : أولا ، لأننى لم أكن أعرف سنك ؛ ثم ، أكرر لك أننى ربما لست السيد چاك .

چولييت : أوه ! بلى ، انما أنا أتعرفك جيدا ، يا سيد چاك .

جاستون : هل كنت تعرفينه معرفة جيدة ؟

چوليت : (تنفجر فجأة منتحبة) آه مستحيل أن ينسى أحد الى هذا الحد ! .. أفلا تتذكر شيئا ، يا سيد چاك ؟

جاستون : لا شيء بالضبط .

چوليت : (تصيح بين دموعها) هل يمكن أن أسمع مثل هذه الأسئلة بعد الذى جرى .. آه ! يا لها من لوعة للمرأة ..

جاستون : (يظل لحظة مشدوها ، ثم ، فجأة ، يفهم) آه !.. أوه ! العفو . أستميحك العفو . على ذلك ، فالسيد چاك ..

چوليت : نعم .

جاستون : أوه ! أستميحك العفو اذن .. انما كم كانت سنك ؟

چوليت : خمس عشرة سنة ، لقد كان أول رجل فى حياتى ،

جاستون : (يبتسم فجأة ، منشرحا) خمس عشرة سنة ، وهو سبع عشرة .. انها رقيقة جدا ، هذه القصة . انها أول شيء مما أسمعه عنه يلوح لى جذابا . وهل دام ذلك طويلا ؟

چولييت : الى أن سافر .

جاستون : وأنا الذى جهدت فى البحث لكى أعرف ما وجه تلك التى كانت صاحبتى ! عال ، لقد كانت بديعة !

چولييت : ربما كانت بديعة ، ولكنها لم تكن الوحيدة ، معلوم !

جاستون : آه ! صحيح ؟

چولييت : أوه ! صحيح ، معلوم !

جاستون : عال ، هذا شىء أيضا لا يجعلنى أكرهه كثيرا .

چولييت : أنت ربما تجد هذا ظريفا ! ولكن ، برغم كل شىء ، يجب أن نعترف بأنه بالنسبة لامرأة ..

جاستون : بالتأكيد ، بالنسبة لامرأة ..

چولييت : شىء صعب ، معلوم ، بالنسبة لامرأة ، أن تحس بالذل فى أليم حبها ! ..

جاستون : (مشدوها قليلا) فى أليم .. ؟ نعم ، بالتأكيد .

چولييت : لم أكن الا خادمة صغيرة مهملة ، ولكن هذا لم يمنعنى من أن أشربه حتى الثمالة ، معلوم ، ذلك الألم الفظيع ، ألم العشيقة المقهورة ..

جاستون : ألم الـ .. ؟ بالتأكيد .

چولييت : ألم تقرأ أبدا رواية « المغتصبة ليلة زفافها » ؟

جاستون : لا .

چولييت : كان ينبغى أن تقرأها ؛ وسترى ، هناك موقف مشابه تقريبا . النذل الذى أغوى « برتراند » سافر هو أيضا (ولكنه سافر الى أمريكا ، حيث طلبه عمه الثرى) واذ ذاك تقولها له ، «برتراند»، انهـا شربته حتى الثمالة ، ذلك الألم الفظيع ، ألم العشيقة المقهورة .

جاستون : (الذى يتضح له كل شىء) آه ! تلك كانت جملة من الرواية ؟

چولييت : نعم ، ولكنها كانت تنطبق علىّ تماما !

جاستون : بالتأكيد ..

(نهض فجأة . يسأل متظرفا) .

وهل كان يحبك كثيرا ، السيد چاك ؟

چولييت : جبا عنيفا . على كل حال ، الأمر بسيط ، كان يقول لى انه سينتحر من أجلى .

جاستون : كيف أصبحت عشيقته ؟

چولييت : أوه ! كان ذلك فى ثانى يوم لى بالبيت . كنت

أرتب غرفته ، فأسقطنى على السرير . وكنت أنا أضحك كالبلهاء . طبعا ، فى تلك السن ! لقد حدث هذا كأنما كان رغم ارادتى . ولكن ، فى الآخر ، أقسم لى أنه سيحبنى طول حياته !

جاستون : (ينظر اليها ويبتسم) : عجيب السيد چاك ..

چولييت : عجيب لماذا ؟

جاستون : لا لشىء . على كل حال ، لو أصبحت السيد چاك ، أعدك بأن آكلمك بكل جد بخصوص هذا الوضع .

چولييت : أوه ! أنت تعرف ، أنا لا أطلب تسوية للوضع . فانى الآن متزوجة ..

جاستون : بصرف النظر ، بصرف النظر ..

(برهة) .

ولكنى أهرب من الدرس ولن أنجح فى الامتحان . فلنعد الى تلك القصة الرهيبة التى بودى أن أجهلها والتى ينبغى أن أعرفها بحذافيرها .

چولييت : آوه ! نعم ، المعركة مع السيد مارسيل .

جاستون : نعم . هل كنت هناك ؟

چوليت : (تنتفخ) بكل تأكيد ، كنت هناك .

جاستون : هل شهدت بداية عراكهما ؟

چوليت : طبعـا .

جاستون : اذن تستطيعين أن تقولى لى من أجل أى جنون غريب تضاربا بتلك الوحشية ؟

چوليت : (بهدوء) : أى جنون غريب ؟ لقد تضاربا من أجلى .

جاستون : (ينهض) : من أجلك ؟

چوليت : طبعا ، من أجلى . أيدهشك هذا ؟

جاستون : (يردد مشدوها) من أجلك ؟

چوليت : معلوم . أتدرى ، لقد كنت عشيقة السيد چاك — انى أقول لك هذا بصفة شخصية ، لأنه يجب أن تعرفه ، ولكن احفظ السر ، أليس كذلك ؟ فأنا لا أسـعى الى أن أفقـد مكانى بسبب حكاية حصلت من عشرين سنة ! نعم ، كنت عشيقة السيد چاك ، وفى الحقيقة يجب أن نقول ان السيد مارسيل كان يحوم حولى قليلا .

جاستون : وبعد ؟

چولييت : وبعد ، فى يوم كان يحاول أن يقبلنى وراء الباب .. أما أنا فلم أترك له نفسى ، معلوم ، لكنك تعرف كيف يصبح الولد عندما يصمم على هذا الشىء .. وفى هذه اللحظة بالضبط ، خرج السيد چاك من غرفته ورآنا . فوثب على السيد مارسيل ، الذى رد عليه . وتضاربا ، وتدحرجا على الأرض ..

جاستون : أين كانا ؟

چولييت : على بسطة الدور الأول الكبيرة ، المجاورة ، هنا .

جاستون : (يصيح فجأة كالمجنون) : أين ؟ أين ؟ أين ؟ تعالى ، أريد أن أرى المكان بالضبط .

(جرها من معصمها حتى الردهة) .

چولييت : انك تؤلمنى !

جاستون : أين ؟ أين ؟

چولييت : (تنتزع نفسها من قبضته ، وتدلك معصمها) : ها هنا ! سقطا هنا ، نصفهما فى الردهة ونصفهما على البسطة . وكان السيد مارسيل تحت .

جاستون : (يصيح) لكنهما هنا كانا بعيدين عن الحافة !

كيف استطاع أن ينزلق حتى أسفل الدرجات ؟
هل تدحرجا معا وهما يتصارعان ؟

چولييت : لا ، ان السيد چاك هو الذى أفلح فى النهوض، وجر السيد مارسيل من رجله حتى الدرجات ..

جاستون : وبعد ذلك ؟

چولييت : بعد ذلك دفعه ، يا للأسف ! وهو يصيح به : « خذ يا ولد يا وغد ، هذا سيعلمك أن تقبل عشيقات غيرك » . هذا ما حصل .

(يسود صمت) .

آه ! لقد كان رجلا ، السيد چاك !

جاستون : (بصوت مكتوم) وكان صديقه ؟

چولييت : معلوم ! انهما منذ سن ست سنين كانا يذهبان الى المدرسة معا .

جاستون : منذ سن ست سنين .

چولييت : آه ! هذا فظيع ، معلوم ! ولكن ماذا تريد ؟ انما الحب أقوى من كل شىء .

جاستون : (ينظر اليها ويتمتم) الحب ، بالتأكيد ، الحب . أشكرك ، يا آنسة .

چورج : (يقرع باب الغرفة ، واذ لا يجده يأتى الى

الردهة) سمحت لنفسى بأن أعـود . فقـد أبطأت فى الاتصال بنا ؛ وكانت أمى قلقة . هل عرفت الآن ما تريد معرفته ؟

(خرجت جولييت)

چورج : أوه ! انها ليست فعلة كريمة ، طبعا .. ولكنى أود أن أظن ، برغم كل ما أمكن أن يقال ، انها لم تكن فى الواقع سـوى حادثة ، بل — ولا تنسى أنك كنت فى السابعة عشرة — عبث صبيانى ، عبث صبيانى مشئوم .

(صمت . يعتريه حرج) .

كيف روت لك الواقعة ؟

جاستون : كما شهدتها ، بلا شك .

چورج : هل قالت لك السبب ، وهو أن تلك المعـركة كانت لتنافسكما فى النادى ؟ استقال مارسيل من ناديك لأسباب شخصية ، وكنتما عضـوين فى فريقين متعارضين ، وبرغم كل شىء ، أليس كذلك ، رحت فى حميتك الرياضية ..

(جاستون لا يقول شيئا) .

على كل حال ، هذه هى الرواية التى أردت أنا

أن أصدقها . لأنه ، من جانب آل جرانشان ، أذيعت قصة أخرى ، قصة رفضت على طول الخط أن أقبلها شخصيا . لا تحاول أن تعرفها ، تلك الرواية ، فما هى الا حمق ولؤم .

جاستون : (ينظر اليه) هل كنت تحبه حقا ؟

چورج : لقد كان أخى الأصغر ، برغم كل شىء . بالرغم من كل شىء آخر . فقد حدثت أشياء أخرى كثيرة .. آه ! لقد كنت فظيعا .

جاستون : طالما يحق لى هذا الطلب ، فسأطلب منك أن تقول : كان « هو » فظيعا .

چورج : (مبتسما ابتسامة بائسة لذكرياته) نعم .. فظيعا . أوه ! ما أكثر ما سببت لنا من هموم ! واذا عدت بيننا ، ينبغى أن يأتيك علم أشياء أخطر من تلك الحركة التعسة ، التى تستطيع بشأنها أن تظل مع ذلك متمتعا باحتمال الشك .

جاستون : على أن أعلم شيئا آخر ؟

چورج : كنت طفلا — ما الحيلة ؟ — طفلا أطلق العنان لنفسه فى عالم مختل النظام . وراحت أمى ، بميادئها ، تصطدم بك دون أن تحسن

التصـــرف ودون أن تؤدى الا لامعـــانك في الانطواء على نفسك . وأما أنا ، فلم تكن لى السلطة الكافية .. فقد ارتكبت حماقة ضخمة ، نعم ، فى أول الأمر ، كلفتنا كثيرا جدا .. كنا ، كما تعلم ، نحن الكبار ، في الميـدان . وظن أمثالك من الشبان كل شيء مباحا لهم . أردت أن تنفذ مشروعا تجاريا . ترى هل كنت صادق التفكير فى هـــذا المشروع ؟ أم أنه لم يكن الا ذريعة لبلوغ مآربك ؟ أنت وحدك تستطيع أن تقول لنا ذلك اذا استعدت ذاكرتك تماما . مهما يكن من شيء ، فقد سحرت — وسحرت هي الكلمة الحقيقيـة — صـديقة من أقدم أصدقاء العائلة . وجعلتها تتسلم مبلغا ضخما ، حوالى خمسمائة ألف فرنك . كنت تزعم أنك وسيط . وكنت قد جئت بورقة مزورة عـلى رأسها اسم شركة .. وهمية بلا شك .. ورحت توقع ايصالات مزورة : وذات يوم ، انكشف كل شيء . ولكن بعد فوات الأوان ، اذ لم يتبق سوى بضعة ألوف . كنت قد أنفقت الباقى ،

يعلم الله فى أى الأوكار وأى الحانات ، مع نساء وبعض الرفاق .. ودفعنا نحن المال لأصحابه طبعا .

جاستون : ان الفرحة التى تأهبتم بها لاستقبال أخيكم العائد تدعو الى الاعجاب .

چورچ : (يطأطىء رأسه) وأكثر مما تعتقد ، يا چاك .

جاستون : كيف ؟ هناك شىء آخر ؟

چورچ : سوف نتكلم عن هذا فى مرة أخرى .

جاستون : لماذا فى مرة أخرى ؟

چورچ : يستحسن . سأدعو الآن أمى . فهى لابد يقلقها صمتنا .

جاستون : (يقفه) تستطيع أن تحدثنى . فانى أكاد أقطع بأنى لست أخاك .

چورچ : (ينظر اليه لحظة فى صمت ، ثم بصوت مخنوق) انك مع ذلك تشبهه كثيرا . هذا وجهه ، ولكن كأنما مرت به مسحة عذاب .

جاستون : ثمانية عشر عاما ! كذلك وجهك ، بلا شك ، وان لم يكن لى الشرف بأن أتذكره دون تجاعيد .

چورج : انها ليست مجرد تجاعيد . انها كبر . ولكن كبر لعله بدلا من أن يطبع الغضون ويقسى الملامح ، قد أشاع العذوبة والرقة . كأنما هى مسحة من الازهاف والطيبة تلك التى مرت بوجهك .

جاستون : نعم . هناك أسباب كثيرة — كما فهمت الآن — لا تتيح لوجه السيد أخيك أن يتصف بطابع الرقة .

چورج : انك تخطىء . لقد كان قاسيا ، نعم ، طائشا ، متقلبا .. ولكن.. أوه ! كنت أحبه بكل عيوبه . كان أجمل منى . ربما لم يكن أذكى — أعنى كان أقل حظا من نوع الذكاء اللازم فى المدرسة وفى الامتحانات — غير أنه كان أعمق احساسا ، وأشد تألقا بالتأكيد ..

(يقول بصوت مخنوق) .

وأشد اغواء . وكان فى الحقيقة يحبنى ، هو أيضا ، على طريقته . بل وكان لديه ، فى ختام الطفولة على الأقل ، لون من عاطفة العرفان

بالفضل كانت تؤثر فى نفسى كثيرا . ولهـذا كانت الصدمة قاسية جدا عندما علمت .

(يطأطىء رأسه كما لو كان هو المخطىء) .

لقد كرهته ، نعم ، كرهته . ثم ، بسرعة كبرى ، نسيت كيف أحقد عليه .

جاستون : وفيم الحقد ؟

چورج : (رفع رأسه ، ينظر اليه) هل أنت چاك ؟

(جاستون يأتى بحركة) .

عبثا أقول لنفسى انه كان صغير السن ، وانه كان ضعيفا فى الواقع كجميع من يظهرون العنف .. عبثا أقول لنفسى ان كل شىء سهل لشفتين جميلتين ليلة صيف عندما يحين رحيلنا الى الميدان . عبثا أقول لنفسى اننى كنت بعيدا ، وانها أيضا كانت صغيرة ..

جاستون : لا أكاد أفهمك . هل أخذ منك امرأة ؟

(برهـــة) .

امرأتك ؟

(جورج يومىء بالايجـــاب . جاستون ، بصوت مكتوم) .

الدنيء .

چورج : (بابتسامة صغيرة حزينة) هو ربما أنت .

چوليت : (بعد برهة ، يسأل بصوت متهدج) ان اسمك جورج ؟

چورج : نعم .

جاستون : (ينظر اليه لحظة ، ثم تغلبه حركة عاطفية عفوا) جورج ..

مدام رينو : (تظهر خارج الغرفة) أنت هنا ، يا چاك ؟

چورج : (والدموع فى عينيه ، خجلا من تأثره) معذرة ، انى أتركككما .

(يخرج مسرعا من الباب الآخر) .

مدام رينو : (وهى تدخل الغرفة) چاك ..

جاستون : (دون أن يتحرك) نعم .

مدام رينو : خمّن من الذى حضر الآن ؟ .. آه ! يالها من جرأة !

جاستون : (كليلا) أنا من الأصل ليس لى ذاكرة ، اذن .. فالتخمين ..

مدام رينو : العمة لويز ، يا عزيزى ! نعم ، العمة لويز !

جاستون : العمة لويز . أوهذه جرأة ؟ ..

مدام رينو : آه ! لك أن تصدقني .. بعد الذى جرى ! انى أرجو ألا تستقبلها ، من أجلى ، لو هى حاولت أن تقربك بالرغم منا . لقد سلكت سلوكا ! .. ثم على كل حال ، أنت لم تكن تحبها . أوه ! ان كان بين الأقارب من كنت تكرهه يا صغيرى ، وتبغضه بغضا حقيقيا — له ما يبرره على كل حال ، يجب أن أعترف بذلك — فهو ابن عمك چول .

جاستون : (وما زال ثابتا لا يتحرك) انى أبغضه اذن بغضا حقيقيا دون أن أدرى .

مدام رينو : ألا تبغض چول ؟ فانك لا تعلم ماذا فعل بك ، هذا الولد البائس ؟ لقد وشى بك فى الامتحان لأنك كنت تخفى جـــدول لوغاريتمـــات .. صحيح ، يجب أن أحكى لك تلك الحكايات كلها ، فأنت خليق بأن تتلقاهم بوجه بشوش ، جميع أولئـــك النـــاس ، أنت الذى لا تتذكر شيئا ! .. وچيرار دوبوك ، الذى لابد سيأتى ليتودد اليك .. انه لكى يتمكن من الدخـــول فى « شركة فيلبير » حيث كانت الفرص أمامك

أكبر بسبب عمك ، أبعدك عن الوظيفة بالافتراء عليك لدى الادارة . نعم ، لقد علمنا فيما بعد أنه كان هو . أوه ! اننى أرجو أن تغلق دونه الباب ، وكذلك لأشخاص غيره سأخبرك بأمرهم ممن غدروا بك فى دناءة .

جاستون : ما أكثر الأشياء الحلوة فى ماضى انسان ! ..

مدام رينو : بالعكس — ولو أن شكلها يثير بعض النفور منذ أصابها الشلل ، مسكينة ! — ينبغى أن تقبّل « مدام بوكون » العزيزة . لقد شهدت ميلادك ..

جاستون : هذا لا يبدو لى حجة كافية .

مدام رينو : ثم انها هى التى عنيت بك أيام التهابك الرئوى ، وكنت أنا مريضة فى الوقت ذاته . لقد أنقذت حياتك ، ياولدى !

جاستون : صحيح ، هناك أيضا عاطفة العرفان بالجميل . لقد فاتنى أن أفكر فى هذا الأمر .

(برهـــة) .

واجبات ، وأحقاد ، وجراح .. ماذا كنت أحسبها اذن ، ذكريات المرء ؟

(يتوقف ، ويفكر) .

صحيح ، لقد نسيت الذكريات التى يؤنبنى عليها الضمير . لدىّ الآن ماض كامل .

(يبتسم بصورة غريبة ، ويذهب نحوها) .

انك ترين مقدار طموحى . انما كنت أفضل نموذجا تحلّيه بعض الأفراح . ونفحة من الشغف أيضا ، لو أمكن . أليس لديك ما تقدمينه لى ؟

مدام رينو : لست أفهمك ، يا ولدى .

جاستون : الأمر مع ذلك بسيط جدا . أود لو رويت لى فرحة من أفراحى القديمة . فان أحقادى وأوزارى لم تنبئنى بشىء . أعطنى فرحة مما كان لابنك ، حتى أرى كيف يتردد رنينها فى نفسى .

مدام رينو : أوه ! ليس هذا عسيرا . الأفراح ، لقد نلت منها الكثير ، لو تعلم .. لكم كنت مدللا !

جاستون : اذن ، اسمحى لى بفرحة واحدة ..

مدام رينو : طيب . شىء يغيظ أن يفرض الانسان على نفسه أن يتذكر هكذا ، دفعة واحدة ، انه لا يدرى ماذا يختار ..

جاستون : قولى كيفما اتفق .

مدام رينو : طيب ، اسمع ، لما كنت فى الثانية عشرة من عمرك ..

جاستون : (يقفها) فرحة من أفراح الرجال . فما عداها بعيد عن الشعور .

مدام رينو : (فجأة متضايقة) انما .. أفراحك فى طور الرجولة .. لم تكن تقول لى معظمها . ان شابا كبيرا ، كما تعلم ! .. لقد كنت كثير الخروج ، كجميع الشبان الكبار .. كنتم الملوك فى ذلك العهد . كنت تذهب الى الحانات ، وسباق الخيل .. كنت تمرح مع رفاقك ، وأما معى ..

جاستون : ألم ترينى أبدا فرحا أمامك ؟

مدام رينو : بلى طبعا ! مثلا ، يوم تسلمت جوائزك الأخيرة ، أتذكر ..

جاستون : (يقاطعها) لا ، دعى الجوائز ! بعد ذلك . بين الوقت الذى وضعت فيه كتب المدرسة والوقت الذى فيه وضعوا بندقية بيدى ، أثناء تلك الشهور القليلة التى لابد أنها كانت ، لست أشك فى ذلك ، كل حياة الرجولة بالنسبة لى .

مدام رينو : انى أبحث . ولكنك فى الواقع كنت تكثر من الخـــروج .. كنت تمعن فى التشـــبه بمظاهر الرجال ..

جاستون : ولكن مع ذلك ، فى سن الثامنة عشرة ، مهما جد الشاب فى تمثيل حياة الرجال ، فهو لا يزال طفلا ! انما حدث ذات يوم أن تسرب الماء من صنبور الحمام ولم يستطع أحد أن يقف تدفقه ، وذات يوم طرأ على موقد المطبخ اختلال هائل ، أو صادفنا محصل ترام مضحكا .. فضحكت أمامك . يوم انشرح صدرى بهدية ، أو بشعاع من الشمس . لست أسألك فرحة طاغية .. بل فرحة صـــغيرة جدا . فانى لم أكن مريض الأعصاب ؟

مدام رينو : (فجأة محرجة) سأقول لك ، يا صغيرى چاك .. كنت أود أن أشرح لك هذا الموضوع فيما بعد ، وفى هدوء أوفر .. لم تكن العلاقة بينك وبينى طيبة جدا فى ذلك العهد .. آوه ! كان ذلك طيشا صبيانيا ! وبمرور الزمن ، أنا متأكدة من أنه سيبدو لك الآن أشد خطرا مما كان .

نعم ، فى تلك الفترة بالذات ، بين المدرسة والجيش ، كنا لا يكلم بعضنا بعضا .

جاستون : آه !

مدام رينو : نعم . من أجل حماقات تافهة ، لو تعلم .

جاستون : ويحا ! كنا عنيدين . ومن الذى بدأ ؟

مدام رينو : (بعد تردد) أوه ! أنا ، اذا شئت .. ولكن ذلك كان بسببك . كنت قد ركبت رأسك بشكل غبى .

جاستون : أى عناد من جانب شاب هذا الذى دفعك الى ألا تكلمى ابنك مدة سنة ؟

مدام رينو : انك لم تفعل قط شيئا فى سبيل فض هذا الموقف . لا شىء !

جاستون : ولكنى عندما سافرت للميدان ، تصالحنا مع ذلك ، فانك لم تتركينى أرحل دون أن تقبلينى ؟

مدام رينو : (بعد صمت ، فجأة) بلى .

(برهة ، ثم بسرعة) .

أنت المسئول ، فى ذلك اليوم أيضا انتظرتك فى غرفتى . وأما أنت ، فكنت تنتظر فى غرفتك . كنت تريد أن أخطو الخطوات الأولى ، أنا ،

أمك ! .. على حين أنك كنت أهنتنى اهانة بالغة . وراح الناس يتوسطون ، فلم يفلح شيء فى حملك على التنازل . لا شيء .. وكنت راحلا الى الميدان .

جاستون : كم كانت سنى ؟

مدام رينو : ثمانية عشرة .

جاستون : لعلى لم أكن أدرك . الى أين كنت ذاهبا . فى الثامنة عشرة ، انما الحرب مغامرة ممتعة . ولكننا لم نكن اذ ذاك فى سنة ١٩١٤ ، حين كانت الأمهات يضعن الأزهار فى البندقيات ، كنت لابد تدركين أنت ، الى أين كنت ذاهبا .

مدام رينو : أوه ! كنت أظن أن الحرب ستنتهى قبل أن تغادر المعسكر أو أننى سأراك فى أول عطلة لك قبل الميدان . ثم انك كنت دائما شديد العنف ، شديد القسوة معى .

جاستون : أما كنت تستطيعين أن تنزلى من غرفتك لتقولى لى : « انت مجنون ، قبلنى ! » .

مدام رينو : خفت من عينيك .. من زمة الكبرياء التى كانت بلا شك ستعترى أنفك . لقد كنت خليقا بأن تطردنى ، لو تعلم ...

جاستون : فى هذه الحال ، كنت تعاودين الكرة ، كنت تبكين على بابى ، كنت تتوسلين لى ، كنت تركعين لكى لا يكون هذا الشر ولكى أقبلك قبل أن أرحل . آه ! أسأت بأنك لم تركعى .

مدام رينو : أم ، تفعل هذا يا چاك ! ..

جاستون : كنت فى الثامنة عشرة ، وكانوا يرسلوننى للموت . انى أشعر ببعض الخجل وأنا أقول لك هذا ، ولكنى مهما كنت عاتيا ، ومهما حبست نفسى فى كبريائى الطائش الغبى ، كان واجبكم جميعا أن تركعوا وأن تستغفرونى .

مدام رينو : نستغفرك ؟ انما أنا لم أرتكب ذنبا !

جاستون : وماذا ارتكبت أنا حتى تنفغر بيننا هذه الهوة السحيقة ؟

مدام رينو : (فجأة ، بلهجة الماضى) أوه ! كنت قد صممت رأيك على أن تتزوج خياطة صغيرة ، يعلم الله أين وجدتها ، وأنت فى الثامنة عشرة ، وكانت ترفض بلا شك أن تصبح عشيقتك .. ليس الزواج هوى ! فهل كان علينا أن ندعك تفسد حياتك ، وتدخل هذه البنت عندنا ؟

لا تقل لى انك كنت تحبها .. أو يعرف الانسان الحب ، فى الثامنة عشرة ، أعنى : هل هو يحب بشكل عميق مستديم — بحيث يتزوج ويؤسس عائلة — بنتا خياطة لقيها فى حفلة راقصة منذ ثلاثة أسابيع ؟

جاستون : (بعد صمت) أجل ، كانت حمـــاقة .. ولكن دفعتى كانت ستستدعى لحمل السلاح بعـد بضعة أشهر ، كنت تعلمين ذلك . اذا كانت هذه هى الحماقة الوحيدة التى قدر على أن أرتكبها ؛ اذا كانت هذا الحب الذى لا يمكنه أن يدوم ، أما كان الذى يطالب به شخصا لم يعد أمامه من الحياة الا بضعة أشهر ، أى ما لا يكاد يكفى لاستنفاده ؟

مدام رينو : ولكننا لم نكن نفكر فى أنك ستموت ! .. ثم ، انى لم أقل لك كل شىء . أتعلم ماذا صرخت فى وجهى ، بفمك الملتوى لأقصاه ، وقد رفعت يدك علىّ ، علىّ أنا أمك ؟ « انى أكرهك ، انى أكرهك ! » . هـــذا ما صرخت به فى وجهى .

(صمت) .

أتفهم الآن لماذا بقيت فى غرفتى ، آملة أن تصعد ، حتى رددت باب الشارع وراءك ؟

جاستون : (فى رقة ، بعد صمت) ومت فى الثامنة عشرة ، دون أن تكون لى فرحتى الصغيرة ، بزعم أنها حماقة ، ودون أن تكلمينى . لقد استلقيت على ظهرى ليلة كاملة ، والجرح ينزف من كتفى ، وبت أشد وحدة من أولئك الذين كانوا ينادون أمهاتهم .

(صمت ، ثم يقول فجـــأة كأنه يخاطب نفسه) .

حقا ، انى أكرهك .

مدام رينو : (تصيح مذعورة) چاك ، ما الذى دهاك ؟

جاستون : (يعود الى نفسه ، ويراها) ماذا ؟ عفـــوا .. أسألك العفو .

(ابتعد ، مغلق النفس ، جامدا) .

لست جاك رينو ، لست أتعرف شيئا هنا مما كان له . ذات لحظة ، نعم ، وأنا أصغى الى كلامك ، خلطت بينه وبينى . انى أســـألك العفو . ولكن ، لعلك ترين أن ماضيا بأكمله ،

بالنسبة لرجل بلا ذاكرة ، انما هو عبء باهظ أثقل مما يطيق ظهره أن يحمله دفعة واحدة .
لو شئت أن تؤدى لى خدمة ، لا خدمة فحسب بل فضلا ، أرجو أن تسمحى لى بالعودة الى الملجأ . لقد كنت أغرس الخس ، وألمع الأرضيات . وكانت الأيام تمضى .. ولكنها حتى بعد انقضاء ثمانى عشرة سنة — وذلك بالضبط نصف آخر من حياتى — لم تتمكن وهى تنضاف يوما الى يوم ، من أن تصنع هذا الشىء الفتاك الذى تسمونه الماضى .

مدام رينو : انما ، جاك ...

جاستون : ثم لا تسمينى بعد الآن جاك . لقد فعل أشياء كثيرة ، جاك هذا . جاستون أحسن ؛ انه وان لم يكن شخصا موجودا ، فأنا أعرف من هو .
ولكن جاك هذا الذى أحاطت باسمه جثث كل تلك الطيور ، جاك هذا الذى احتال وآلم ورحل وحده الى الحرب دون أن يرافقه الى قطاره مودع ، جاك هذا الذى لم يستطع حتى أن يحب ، انه يخيفنى .

مدام رينو : ولكن الأمر ، يا ولدى ..

جاستون : اذهبى عنى ! لست ولدك .

مدام رينو : أوه ! انك تخاطبنى كما فى الماضى !

جاستون : أنا ليس لى ماض ، انى أخاطبك كما أخاطبك اليوم . اذهبى عنى !

مدام رينو : (تنتصب ، كما كانت تفعل فى الماضى ، هى أيضا) طيب يا چاك ! لكن بعد أن يثبت لك الآخرون أننى أمك ، سوف يجب عليك أن تأتى لتسألنى العفو .

(تخرج دون أن ترى ڤالنتين التى أصغت الى العبارات الأخيرة من الممر .)

ڤالنتين : (تتقدم بعد خروجها) تقول انه لم يحب أبدا . ماذا تعلم عن ذلك ، أنت الذى لا تعلم شيئا ؟

جاستون : (يستعرضها مندهشا) أنت أيضا ، اذهبى عنى !

ڤالنتين : لماذا تحدثنى هكذا ؟ ماذا بك ؟

جاستون : اذهبى عنى ! أنا لست جاك رينو .

ڤالنتين : انك تصرخ بهذا ، كما لو كنت خائفا من أن تكون اياه .

جاستون : هذا صحيح الى حد ما .

فالنتين : اذا كان خوفا ، فهذا معقول . ان شبح الفتى جاك شبح يرهبه من يهمّ بأن يتقمصه ، ولكن لماذا البغض ، وابغاضى أنا ؟

جاستون : لا أحب أن تأتى لتبتسمى لى كما لم تكفّى عن الابتسام لى منذ حللت هنا . لقد كنت عشيقته .

فالنتين : من اجترأ على أن يقول هذا ؟

جاستون : زوجك .

(صمت) .

فالنتين : وبعد ، اذا كنت عشيقى ، واذا كنت وجدتك وأريد أن أستعيدك .. هل أنت من السخف بحيث تجد فى ذلك ما يسوء ؟

جاستون : انك تكلمين شخصا يكاد يكون فلاحا من فلاحى الدانوب . ويا له من دانوب ، أسود المياه ، ليس لضفافه اسم . اننى رجل متقدم فى السن ، ولكنى أصل الى الحياة جديد الصفحة . فقد لا يخلو من متعة فى الواقع أن يأخذ الانسان امرأة أخيه ، أخيه الذى كان يحبه ، أخيه الذى أحسن إليه ؟

فالنتين : (برقة) عندما تعارفنا ونحن نقضى العطلة فى « دينار » ، كنت ألعب التنس وأسبح معك أكثر مما كنت أفعل مع أخيك .. وتنزهت على الصخور معك أكثر مما تنزهت معه . ومعك أنت ، أنت وحدك ، تبادلت القبلات . وأتيت لدى أمك ، بعد ذلك ، للاشتراك فى بعض حفلات الرفاق ، فبدأ أخوك يحبنى ؛ ولكنك أنت الذى كنت آتى لكى أراه .

جاستون : ولكنه هو مع ذلك الذى اقترنت به ؟

فالنتين : كنت طفلا . وكنت يتيمة ، قاصرة ، مفلسة ، أعيش مع خالة محسنة ، جعلتنى أدفع غاليا ثمن من رفضت من خطباء تقدموا لطلب يدى . فهل كان علىّ أن أبيع نفسى لآخر أم له هو الذى كان يقربنى اليك ؟

جاستون : هناك باب فى المجلات النسائية يجيب فيه المحرر على هذا النوع من الأسئلة .

فالنتين : لقد أصبحت عشيقتك بعد عودتنا من رحلة شهر العسل .

جاستون : آه ! اننا على ذلك انتظرنا قليلا .

فالنتين : قليلا ؟ شهرين ، شهرين فظيعين . ثم كانت لنا ثلاث سنين ، لنا وحدنا ، لأن الحرب قامت فورا ورحل جورج يوم ٤ أغسطس .. وبعد هذه الأعوام السبعة عشر يا جاك ..

(وضعت يدها على ذراعه فتراجع) .

جاستون : أنا لست جاك رينو .

فالنتين : ولو لم تكن .. دعنى أتأمل طيف الرجل الوحيد الذى أحببته ..

(تبتسم ابتسامة صغيرة) .

أوه ! انك تجعد فمك ..

(تحدق فى وجهه ، فيتحرج) .

ألا يوجد فىّ شىء يناسب شيئا مما فى مخزن بضائعك الترفيهية ، ابتسامة ، نبرة ؟

جاستون : لا شىء .

فالنتين : لا تكن جافا الى هذا الحد ، مهما يكن جحيما ذلك الدانوب الذى جئت منه ! انه شىء خطير ، أتدرى ، بالنسبة لامرأة قد أحبت ، أن تجد ذات يوم ، بعد غياب ليس له آخر ، شخصا ان لم يكن هو عشيقها ، فهو على الأقل ،

بتصوير أشد قسمات فمه خفاء ، طيفه الدقيق الشبه .

جاستون : لعلى طيف ملؤه الدقة ، ولكنى لست جاك رينـــو .

فالنتين : انظر الىّ مليا .

جاستون : انى أنظر اليك مليا . انك بديعة ، ولكنى لست جاك رينو !

فالنتين : انى لا شيء بالنسبة لك ، هل أنت متأكد من ذلك ؟

جاستون : لا شيء .

فالنتين : اذن ، لن تستعيد ذاكرتك أبدا .

جاستون : يبلغ بى الحال أن أتمنى ذلك .

(برهة ، غير أن القلق يساوره) .

لماذا لن أستعيد ذاكرتى أبدا ؟

فالنتين : أنت لا تتذكر من رأيتهم منذ سنتين .

جاستون : سنتين ؟

فالنتين : متعهدة الكساء ، متعهدة حلت يوما محل المتعهدة الأصلية ..

جاستون : متعهدة ثياب محل المتعهدة الأصلية ؟

(صمت . وفجأة يسأل) .

من أخبرك بتلك القصة ؟

فالنتين : لم يخبرنى أحد . كنت — بموافقة حماتى على كل حال — قد استعرت هذه الشخصية لكى يباح لى أن أقربك . انظر الىّ مليا ، أيها الرجل الذى فقد الذاكرة ..

جاستون : (يجذبها بالرغم منه ، مضطربا) كنت أنت المتعهدة التى لم تمكث الا يوما ؟

فالنتين : نعم ، كنت أنا .

جاستون : ولكنك لم تقولى لى شيئا فى ذلك اليوم ؟

فالنتين : ما كنت أريد أن أقول لك شيئا قبل وصالنا .. كنت آمل — أترى كم أومن بالحب ، بحبك أنت ؟ — أنك اذ تنالنى تسترد ذاكرتك .

جاستون : ولكن بعده ؟

فالنتين : بعده ، عندما هممت بأن أقول لك ، تذكر ، فوجئنا .

جاستون : (يبتسم لهذه الذكرى) آه ! أمين المخازن !

فالنتين : أمين المخازن ، نعم .

جاستون : أرجو ألا تكونى قد أعلنت على رؤوس الأشهاد أنك تعرفتنى ؟

فالنتين : أعلنت ذلك ، ولكننا كنا خمسين عائلة تعلنه .

جاستون : (تعتريه ضحكة عصبية ، فجأة) ألا ان هـذا صحيح — يا لى من غبى ! — كل النـاس تتعرفنى ! هذا لا يثبت بشىء أننى جاك رينو .

فالنتين : ها أنت ذا تذكرت ، مع ذلك ، متعهـدة ثيابك وصرة ملاءاتها الضخمة .

جاستون : أجل ، بالتأكيد ، تذكرتها . انى فيما عدا مرضى بفقد الذاكرة ، عندى ذاكرة قوية .

فالنتين : هل تود أن تأخذها مرة أخرى بين ذراعيك ، متعهدة ثيابك ؟

جاستون : (يدفعها عنه) انتظرى حتى نعرف هل أنا جاك رينو .

فالنتين : وان كنت أنت جاك رينو ؟

جاستون : ان كنت أنا جاك رينو ، لن آخذها مرة أخرى بين ذراعى ، مهما كان الثمن . فلست أريد أن أكون عشيق زوجة أخى .

فالنتين : ولكن سبق بالفعل أن كنت كذلك ! ..

جاستون : كان هذا من عهد بعيد جدا ، أصبحت بعده شقيا جدا ، لقد اغتسلت من شبابى .

فالنتين : (تطلق ضحكة انتصار صغيرة) ها أنت ذا قد نسيت متعهدة ثيابك !.. ان كنت أنت جاك رينو ، فمن سنتين فقط كنت عشيق زوجة أخيك . أنت ، أنت بنفسك ، لا شابا صغيرا عفى عليه الزمان .

جاستون : لست جاك رينو .

فالنتين : اسمع يا جاك ، عليك رغم ذلك أن تتخلى عن البساطة العجيبة التى يتمتع بها فاقد الذاكرة . اسمع يا جاك ، عليك رغم ذلك أن تتقبل نفسك . ان حياتنا كلها وما بها من مبادئنا الأخلاقية الكريمة وحريتنا العزيزة ، انما قوامها فى آخر الأمر أن تتقبل أنفسنا كما نحن .. تلك الأعوام السبعة عشر التى قضيتها فى الملجأ واحتفظت خلالها بنفسك طاهرة نقية ، انها بالضبط مدة شباب ، طور شبابك الثانى الذى يبلغ اليوم نهايته . وعليك الآن أن تصبح رجلا من جديد ، بكل ما تقتضيه الرجولة من مهمات ، ومن

طمس معالم ، ومن مسرات أيضا . تقبل نفسك وتقبلني ، يا جاك .

جاستون : ان اضطررت الى ذلك بقيام دليل ما ، لن يكون لي بد من أن أتقبل نفسي ؛ ولكني لن أتقبلك .

فالنتين : ولكن ما دام على الرغم منك قد حدث هذا بالفعل ، من سنتين !

جاستون : لن آخذ امرأة أخى .

فالنتين : متى ستترك عباراتك الضخمة ؟ سوف ترى ، انك الآن اذ تصبح رجلا ، لن تكون مشكلة من مشاكلك الجديدة بسيطة بحيث تستطيع ايجازها فى صيغة واحدة .. لقد أخذتنى منه ، نعم ولكنه ، أولا ، كان قد أخذنى منك ، بكل بساطة لأنه كان رجلا ، مطلق التصرف ، قبلك .

جاستون : ثم ، ان الأمر ليس مقصورا عليك .. اننى لست حريصا على أن أكون قد نهبت سيدات عجائز ، وهتكت عرض خادمات .

فالنتين : أى خادمات ؟

جاستون : واقعة أخرى .. اننى لست حريصا كذلك على

أن أكون قد رفعت يدى على أمى ، أو أى سفاهة من سفاهات شبيهى المخيف .

فالنتين : ما أشد تصايحك ! .. ولكنك فعلت هـذا أيضا ، على وجه التقريب ، منذ لحظات ..

جاستون : انى قلت لسيدة عجـــوز قاسية القلب انتى أكرهها ، ولكن هذه السيدة العجوز لم تكن أمى .

فالنتين : بلى ، جاك ! ولهذا السبب قلت لها ذلك بكل ما أوتيت من عنف . ها أنت ذا ترى أنه كان كافيا لك — بالعكس — أن تخالط ســـاعة شخصيات ماضيك حتى تستأنف معهم عن غير وعى سيرتك القديمة . اســـمع يا جاك ، أنا سأصعد الى غرفتى ، لأن غضبك سيثور الآن جدا . وبعد عشر دقائق ستنادينى ، لأن نوبات غضبك فظيعة ، ولكنها لا تدوم أبدا أكثر من عشر دقائق .

جاستون : ومن أدراك ؟ انما أنت تغيظيننى فى آخر الأمر . يبدو عليك أنك تريدين أن توحى الىّ بأنك تعرفيننى خيرا مما أعرف نفسى .

فالنتين : بل وبكل تأكيد ! .. اسمع ، يا جاك ، اسمع . هناك دليل قاطع لم أستطع قط أن أقوله للآخرين ..

جاستون : لست أصدقك !

فالنتين : (تبتسم) انتظر ، فانى لم أقله بعد .

جاستون : (يصيح) لا أريد أن أصدقك ، لا أريد أن أصدق أحدا ! لا أريد أن يكلمنى أحد عن ماضيّ منذ الآن .

الدوقة : (تدخل كالزوبعة ، يتبعها الأستاذ هوسپار . تتوارى فالنتين فى الحمام) جاستون ، جاستون ، هذا شيء فظيع ! وصل منذ لحظة جماعة من الناس ، غاضبين ، مرعدين ، انهم احدى أسرك ! فاضطررت الى أن أستقبلهم . لقد غمرونى بالشتائم . انى أدرك الآن أننى كنت مجنونة حينما استهترت بالأمر ولم أتبع ترتيب ورود الأسماء كما أعلنّا فى الصحف .. هؤلاء الناس يظنون أننا نحرمهم حقوقهم . سيجعلونها فضيحة ، ويتهموننا بتهم لا يعلمها الا الله !

هوسپار : أنا على يقين ، يا سيدتى ، من أن أحـــدا لن يجرؤ على الاشتباه فيك .

الدوقة : أولا تفهم اذن أن هذه المائتين والخمســين ألف فرنك تعمى أبصـــارهم ! انهم يتكلمون عن المحسوبية ، والمحاباة . وبين هذا وبين القول بأن صـغيرى ألبير سيقبض المبلغ الضخم من العائلة التى ينسب اليها جاستون ، لا توجـد الا خطوة !

رئيس الخدم : (يدخل) سيدتى . انى أسـأل جناب الدوقة العفو ، فهاهم أشخاص آخرون يطالبون بمخاطبة الأستاذ هوسپار أو جناب الدوقة .

الدوقة : ما اسمهم ؟

رئيس الخدم : أعطونى هذه البطاقة التى لم أشأ أن أقدمها مباشرة لجناب الدوقة ، نظرا لأنها بطاقة تجارية .

(يقرأ ، بوقار كبير) .

« زبد وبيض وجبن

محل بوجران » .

الدوقة : (باحثة فى مفكرتها) بوجران ؟ قلت بوجران ؟ انها بائعة اللبن !

الوصيف : (يقرع الباب ويدخل) أسأل سيدتى العفو ؛ ولكن هناك سيد ، أو على الأصح رجل ، يطلب سيدتى الدوقة . ونظرا لهيئته ، يجب أن أقول لسيدتى اننى لم أجرؤ على ادخاله .

الدوقة : (عاكفة على مفكرتها) ما اسمه ؟ «لوجروپاتر» أم « مادينسال » ؟

الوصيف : « لوجروپاتر » يا سيدتى الدوقة .

الدوقة : « لوجروپاتر » ، انه وقاد المصابيح ! أدخله بالتعظيم والتكريم ! لقد جاءوا جميعا فى نفس القطار . انى أراهن على أن آل « مادينسال » سيتبعونهم . لقد طلبت « پونتوبرون » فى التليفون . وسأذهب لأحاول أن أصبّرهم .

(تخرج مسرعة ، يتبعها الأستاذ هوسپار)

جاستون : (يتمتم ، مرهقا) لديكم جميعا أدلة ، وصور شمسية مشابهة ، وذكريات دقيقة كتفاصيل الجرائم .. وأسمعكم جميعا فأحس بكائن مختلط الجنس يقوم ورائى شيئا فشيئا ، به بعض ما بكل ولد من أولادكم وليس به شىء منى ، لأن أولادكم ليس بهم شىء منى .

(يردد) .

أنا . أنا . انى موجـــود ، أنا ، برغم حكاياتكم كلها .. لقـــد تحدثت منذ لحظة عن البساطة العجيبة التي أتمتع بها فى حياة المريض بفقدان الذاكرة .. انك تعيثين . حاولي أن تجمعى كل الفضائل ، وكل الرذائل ، وأن تعلقيها على ظهرك .

فالنتين : (وقد عادت عند خروج الدوقة) نصيبك منها سيصبح أهون بكثير لو شئت أن تصغى الىّ دقيقة واحدة يا جاك . انى أقدم لك تركة مثقلة الى حد ما ، بلا شك ، ولكنها ستبدو لك أخف لأنها ستزيح عنك كل ما عداها . هل تود أن تستمع لى ؟

جاستون : انى أستمع لك ..

فالنتين : اننى لم أرك أبدا عاريا ، أليس كذلك ؟ حسنا ، انما بجسمك أثر جرح ، أثر جرح صغير جدا لم يفطن اليه أحد من الأطباء الذين فحصوك — انى متأكدة من ذلك — على مســـــافة سنتيمترين تحت عظمة الكتف اليسرى . انها ضربة بدبوس قبعة — ولعلك تتخيل كيف كانت

الأزياء سنة ١٩١٥ أصبتك بها ذات يوم ظننت فيه أنك قد خنتنى .

(تخرج . يمكث مشدوها لحظة ثم يأخذ ببطء فى خلع سترته) .

اللوحة الرابعة

السائق والوصيف وقد تسلقا كرسيا فى ممر صغير مظلم ينظران من كوة .

الوصيف : ايه ! يا خبر ! انه يتعرى ..

السائق : (يدفعه ليحتل مكانه) لا يا شيخ ؟ لابد أنه مجنون لآخر درجة ، هذا الولد ! ماذا يفعل ؟ يبحث عن برغوث ؟ انتظر ، انتظر . هو ذا يركب على كرسى ليرى نفسه فى مرآة المدفأة ..

الوصيف : أنت تمزح .. يركب على كرسى ؟

السائق : كما أقول لك .

الوصيف : (محتلا مكانه) أرنى هذا .. آه ! يا خبر ! وكل هذا لكى يرى ظهره . انى أقول لك انه مجنون . طيب . هو ذا ينزل . لقد رأى ما كان يريد أن يراه . انه يعيد كرسيه . ويجلس عليه . آه ! يا خبر ! .. مصيبة صحيح !

السائق : ماذا يفعل ؟

الوصيف : (يلتفت ، مبهوتا) انه يبكى ..

تسقط الستارة

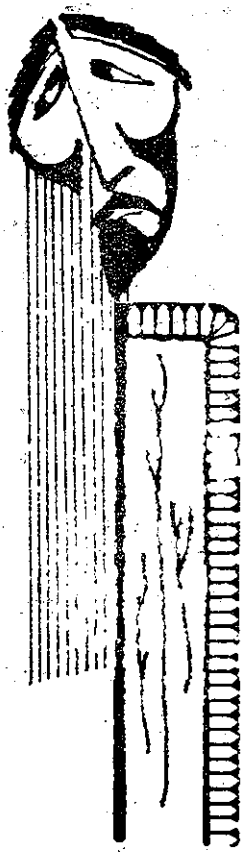

اللوحة الخامسة

غرفة چاك . خشب النوافذ مغلق ، والظلمة الضاربة الى الحمرة يخططها النور . انه الصباح . جاستون مضطجع فى السرير ، ناعس . رئيس الخدم والوصيف منهمكان فى احضار طيور محنطة الى الغرفة ، ينظمانها حول السرير . الدوقة ومدام رينو تديران العمليات من الممر . كل شىء يتم بالتهامس والسير على أطراف الأقدام .

رئيس الخدم : هل نضعها كذلك حول السرير ، يا جناب الدوقة ؟

الدوقة : نعم ، نعم ، حول السرير ، بحيث يراها كلها مرة واحدة بمجرد أن يفتح عينيه .

مدام رينو : آه ! ليت منظر هذه الحيوانات الصغيرة يستطيع أن يرده لنفسه !

الدوقة : هذا يمكن أن يؤثر فيه كثيرا .

مدام رينو : كم كان يهوى أن يطاردها ! كان يتسلق الأشجار الى ارتفاعات شاهقة لكى يضع الصمغ على الأغصان .

الدوقة : (لرئيس الخدم) ضع أحدها على الوسادة ، بالقرب منه جدا . على الوسادة ، نعم ، نعم ، على الوسادة .

رئيس الخدم : ألا تخشى سيدتى الدوقة أن يصاب بالذعر عندما يرى وهو يستيقظ هذا الحيوان الصغير بجوار وجهه ؟

الدوقة : الذعر عنصر ممتاز فى حالته يا صاحبى . ممتاز .

(تعود الى مدام رينو) .

آه ! انى لا أخفى عنك أن القلق ينهشنى يا سيدتى ! لقد أمكننى أن أهدىء خواطر أولئك الناس ، مساء أمس ، بأن قلت لهم ان هوسپار وصغيرى ألبير سيكونان هنا فى الصباح الباكر ؛ ولكن من يدرى ان كنا سنفلح فى التخلص منهم بلا خسائر ؟ ..

الوصيف : (يدخل) وصلت الأسر المرشحة للسيد جاستون يا سيدتى الدوقة .

الدوقة : أترين ! لقد قلت لهم الساعة التاسعة ، وها هم هنا فى التاسعة الا خمس دقائق . انهم ناس لن يستطيع شىء أن يحملهم على التنازل .

مدام رينو : الى أين أدخلتهم ، يا فكتور ؟

الوصيف : الى الصالون الكبير ، يا سيدتى .

الدوقة : بعددهم الذى جاءوا به أمس ؟ يا لهـا من فكرة فلاحين أن يحضر القوم جماعة لكى يكون دفاعهم أشد .

الوصيف : انهم أكثر ، يا سيدتى الدوقة .

الدوقة : أكثر ؟ كيف هذا ؟

الوصيف : نعم ، يا سيدتى الدوقة ، زاد العـــدد ثلاثة . فقـــد انضم اليهم ســـيد حسن المظهـر ، يصحب صبيا صغيرا ومربيته ..

الدوقة : مربية ؟ أى نوع من المربيات ؟

الوصيف : انجليزية ، يا جناب الدوقة .

الدوقة : آه ! انهم آل مادينسال ! .. ناس أعتقد أنهم لطفاء . انه فرع الأسرة الانجليزى الذى يطالب بجاستون .. شىء مؤثر أن يجيئوا هـكذا من بعيد للبحث عن أهلهم ، ألا ترين ذلك ؟ اسأل هؤلاء الأشخاص أن يصبـــروا بضع دقائق يا صاحبى .

مدام رينو : ولكن هؤلاء الناس جميعا لن يستردوه قبل أن يتكلم ، أليس كذلك ، يا سيدتى ؟

الدوقة : لا تخافى . الامتحان بدأ بكم ، ولابد ، برضاهم أو بغير رضاهم ، أن تتمه بالطريقة القانونية . لقد وعدنى صغيرى ألبير أن يكون حازما جدا فيما يتعلق بهذه النقطة . ولكننا من ناحية أخرى مضطرون الى معاملتهم بكثير من اللباقة لكى نتجنب أدنى فضيحة .

مدام رينو : تلك فضيحة يخيل الىّ أنك تبالغين فى تقدير خطرها ، يا سيدتى .

الدوقة : آفيقى يا سيدتى ! ان الصحافة اليسارية تتربص لصغيرى ألبير ، أنا أعرف ذلك : عندى جواسيس . وسيهجم أولئك الناس على هذه الفضيحة كما تهجم الكلاب الضارية على جيفة . وهذا شىء — مهما كانت رغبتى فى أن أرى جاستون يدخل أسرة لطيفة — لا أستطيع أن أسمح به . وكما أنك أم ، فأنا عمة — قبل كل شىء .

(تضغط على ذراعها) .

ولكن صدقيني ، ان قلبي قد انكسر مثلك من جراء كل ما ينطوي عليه هذا الامتحان من آلام وعذاب .

(يمر الوصيف بالقرب منها ومعه سناجيب محنطة . تتبعه بعينيها) .

آلا ما أجمل جلد السنجاب ! كيف لم تخطر لأحد فكرة صنع المعاطف منه ؟

مدام رينو : (مشدوهة) لست أدري .

الوصيف : لابد لأنه أصغر من اللازم .

رئيس الخدم : (الذي يراقب الباب) انتبهوا ، لقد تحرك سيدي !

الدوقة : يجب آلا نظهر على أي حال .

(لرئيس الخدم) .

افتح خشب النوافذ .

(النور يغمر الغرفة . يفتح جاستون عينيه ، ويرى شيئا ما بجانب وجهه ، فيتراجع ، وينتصب جالسا) .

جاستون : ما هذا ؟

(يرى نفسه وسط بنات عرس ، وظربي ، وسناجيب محنطة ، فيحملق ويصيح .)

ما شأن هذه الحيوانات كلها ؟ ماذا تريده منى ؟

رئيس الخدم : (يتقدم) انها محنطة ، يا سيدى . انها الحيوانات الصغيرة التى كان سيدى يلهو بقتلها . أولا يتعرفها سيدى ؟

جاستون : (يصيح بصوت أجش) أنا لم أقتل حيوانات أبدا !

(ينهض ، فيهرع اليه الوصيف حاملا رداءه المنزلى . ويدلفان الى الحمام . ولكن سرعان ما يخرج جاستون ويعود الى الحيوانات) .

كيف كان يأتى بها ؟

رئيس الخدم : ليتذكر سيدى الفخاخ المصنوعة من الصلب ، تلك التى كان يتأنى فى اختيارها من الكتاب المصور الذى يعرض منتجات « مصنع أسلحة وعجلات سانت اتيين » .. ولبعضها كان سيدى يفضل استخدام الصمغ .

جاستون : هل كان يجدها وهى ما زالت حية ؟

رئيس الخدم : بوجه عام ، لم تكن ميتة يا سيدى . كان سيدى ينجز حياتها بسكين الصيد الخاصة . سيدى كان بارعا جدا فى ذلك .

جاستون : (بعد صمت) ماذا يستطيع الانسان أن يفعل من أجل حيوانات ميتة ؟

(تصدر عنه حركة يمنعها الخزى من أن تكون مداعبة لها ، ويشرد ذهنه لحظة) .

ما معنى مداعبة هذه الجلود المشدودة المجففة ؟ سأذهب لألقى ثمر البندق وقطع الخبز لسناجيب غيرها ، كل يوم . سأحرّم ، حيثما كانت الأرض ملكى ، أن يتعرّض امرؤ لبنات عرس بأخف أذى .. ولكن ما سبيلى الى تعزية هذه عن الليل الطويل الذى سرى بها خلاله الألم والخوف دون أن تفهم ، وقد أمسك برجلها هذا الفك الجامد ؟

رئيس الخدم : أوه ! لا يجب أن يتألم سيدى الى هذا الحد . ليس أمر الحيوانات الصغيرة بالأمر الخطير ؛ ثم ، على كل حال ، انه شيء قد انقضى الآن .

جاستون : (يردد) انه شيء قد انقضى الآن . حتى لو كانت لى القدرة على أن أجعل جنس الحيوانات الصغيرة فى الغابات سعيدا الى الأبد .. فكما قلت : انه شيء قد انقضى .

(ينصرف نحو الحمام قائلا :)

لماذا لا ألبس الرداء المنزلى الذى لبسته أمس ؟

رئيس الخدم : هذا أيضا من ملابس سيدى . أوصتنى سيدتى أن أجعل سيدى يجربهـا كلها ، لعـل سيدى أن يتعرف واحدا منها .

جاستون : ماذا فى جيوب هذا الرداء ؟ أهى أيضا أشياء تذكارية ، مثل الأمس ؟

رئيس الخدم : (وهو يتبعه) لا يا سيدى . انها فى هذه المرة كرات نفتالين .

(أعيد اغلاق باب الحمام . تخرج الدوقة ومدام رينو من مخبئهما) .

رئيس الخدم : (تصـدر عنه حركة قبـل أن يخرج) سيدتى استطاعت أن تسمع . لست أظن أن سـيدى تعرّف شيئا .

مدام رينو : (ساخطة) كأنه يتعمد هذا حقا .

الدوقة : لو كان هذا ، صدقينى ، لكلمته بلهجة شديدة جدا ، ولكنى أخشى لسوء الحظ أن يكون الأمر أخطر من هذا .

جورج : (داخلا) ترى هل استيقظ ؟

الدوقة : نعم ، ولكن مؤامرتنا الصغيرة لم تنتج شيئا .

مدام رينو : لاحت عليه دهشة أليمة من رؤية جثث تلك الحيوانات ، هذا كل ما هناك .

چورچ : هل تسمحان بأن تتركانى هنا لحظة ، فبودى أن أحاول الحديث معه .

مدام رينو : ليتك توفق يا جورچ ! أما أنا ، فقد بدأت أفقد الأمل .

چورچ : لا يجب يا أماه ، المسألة بسيطة ، لا يجب . بل يجب التمسك بالأمل حتى النهاية . الأمل ولو عارضه الواقع .

مدام رينو : (فى شىء من الحنق) ان سلوكه متعب حقا . أتريد الصراحة ؟ يبدو لى أنه يعاندنى كما كان يفعل فى الماضى ..

چورچ : ولكن ما دام لم يتعرفك فحسب ..

مدام رينو : أوه ! كم كان شرس الخلق ! مريضا بالذاكرة أو غير مريض ، ما بالك تعفيه من ذلك ؟

الدوقة : (وهى تنصرف معها) أعتقد أنك تبالغين فى الشعور بعدائه لك ، يا سيدتى . ليس لى على أى حال أن أعطيك نصيحة ، ولكنى أريد أن أقول لك انى أجد طريقتك فى التصرف معه طريقة

باردة الى حد ما أكثر مما يجب . انك أم ، يا للشيطان ! كونى عاطفية . ارتمى عند قدميه ، اصرخى .

مدام رينو : أن أرى جاك يستعيد مكانه هنا ، هذا أعز مرادى ، يا سيدتى ؛ ولكنى لن أستطيع حقا أن أذهب الى ذلك المدى . وخاصة بعد الذى جرى .

الدوقة : خسارة . أنا متأكدة من أن هذا كان خليقا بأن يهزه بشدة . أما أنا ، فلو حاولوا أن يأخذوا منى صغيرى ألبير ، انى أحس بأننى سأصبح اذ ذاك مخيفة كالوحش الضارى . هل رويت لك أننى ، عندما رسب فى البكالوريا ، تعلقت بلحية عميد الكلية ؟

(خرجتا . طرق جورج فى هذه الأثناء باب الغرفة ، ثم دخل ، فى حياء) .

چورج : هل أستطيع أن أكلمك ، يا جاك ؟

صوت جاستون : (من الحمام) من هذا الذى جاء أيضا ؟ لقد طلبت ألا يأتى أحد . أفلا أستطيع حتى أن أستحم دون أن تلاحقونى بالأسئلة ، دون أن تقذفونى بالذكريات فى وجهى ؟

الوصيف : (وهو يوارب الباب) سيدى فى الحمـــام ، يا سيدى .

(لجاستون الذى لا نراه) .

انه سيدى ، يا سيدى .

صوت جاستون : (وما زال متجهما ، ولكنه أرق) آه ! أهـو أنت ؟

چورج : (للوصيف) اتركنا لحظة ، يا ڤيكتور .

(يخرج . يقترب جورج من الباب) .

أسألك العفو يا جاك .. اننى أدرك فعلا أننـا نزعجك بتوالى حكاياتنا عليك .. ولكن الذى أريد أن أقوله لك شىء مهم مع ذلك .. اذا لم يكن حديثى يضايقك فوق ما تطيق ، فانى أود أن تسمح لى ..

صوت جاستون : (من الحمام) أى قذارة أخرى وجدتها فى ماضى أخيك لكى تلصقها بكتفى ؟

چورج : انها ليست قذارة ، يا جاك ، بالعكس ، انهـا أفكار ، أفكار أود أن أفضى بها اليك ، اذا سمحت .

(يتردد هنيهة ثم يبدأ) .

أنت تدرك أن المرء ، بذريعة أنه رجل فاضل ، وأنه كان كذلك دائما ، وأنه لم يفعل أبدا شرا (وهو شيء يسير جدا فى الواقع لبعض الناس) ، يعتقد أن كل شيء مباح له .. يخاطب سواه من علياء طمأنينته .. ويوجه اللوم ، ويتشاكى ..

(يسأل فجأة) .

انك لست ناقما علىّ بسبب أمس ؟

(يصدر الجواب فى تجهم كالجواب السابق ، ومتأخرا هنيهة كأنه يصدر على مضض) .

صوت جاستون : بسبب ماذا ؟

چورج : طبعا بسبب كل الذى رويته لك وبالغت فيه ، وأنا أعرض نفسى فى موقف الفريسة . بسبب هذا اللون من ابتزاز عطفك تحت تأثير حكايتى التعسة ..

(نسمع ضجة فى الحمام . وينهض جورج مذعورا) .

انتظر ، انتظر ، لا تخرج حالا من الحمام ، دعنى أنم ، انى أفضل هذا . اذا رأيتك أمامى ، سأستأنف الظهور بمظهر الأخ ، ولن أجد

ما يخرجنى من ذلك .. أتدرى ، يا جاك ، لقد أمعنت التفكير هذه الليلة ، ان الذى جرى كان شيئا فظيعا ، بكل تأكيد ، ولكنك كنت طفلا ، وكانت هى أيضا طفلة ، أليس كذلك ؟ ثم ، فى « دينار » ، قبل زواجنا ، انما كانت تتوق الى التنزه معك ، ولعلكما كنتما تتبادلان الحب من قبل ، وأنتما كالصبية المساكين الذين لا يستطيعون شيئا .. وحللت أنا بينكما بحذائى الغليظ ، ووظيفتى ، وسنى .. أديت دور الخطيب الجاد .. ولابد أن خالتها قد دفعتها الى قبول طلبى .. الخلاصة أن الذى فكرت فيه الليلة هو أنه لم يكن لى الحق فى أن أوجه اليك ما وجهت من لوم ، وانى أسحبه كله . هو ذاك .

(يهوى جالسا ، وقد استنفد قواه . يخرج جاستون من الحمام فيذهب اليه فى وداعة ، ويقول واضعا يده على كتفه) .

جاستون : كيف استطعت أن تحب الى هذا الحد ذلك الولد النذل ، ذلك الولد الشرس ؟

چورج : وماذا تريد أن أفعل ؟ لقد كان أخى .

جاستون : انه لم يسلك سلوك الأخ فى شىء . لقد سلبك ، وخانك .. لو عاملك على هذا النحو أصدق أصدقائك لكنت كرهته .

چورج : الصديق شىء آخر ، أما هو فقد كان أخى ..

جاستون : ثم كيف تستطيع أن تتمنى عودته — وان تقدمت به السن ، وان تغير — بين زوجتك وبنيك ؟

چورج : (ببساطة) وماذا تريدنى أن أفعل ؟ انه ولو كان سفّاحا ، فهو من الأسرة ، ومكانه فى الأسرة .

جاستون : (يردد ، بعد برهة) هو من الأسرة ، ومكانه فى الأسرة . ما أبسط هذا !

(يقول لنفسه) .

كان يظن نفسه صالحا ، وهو ليس بصالح ؛ فاضلا ، ولكن هيهات . وحيدا فى الدنيا ، وحرا بالرغم من جدران الملجأ — غير أن الدنيا تعمرها كائنات قدم لها رهونا وما زالت تنتظره — وأدنى حركاته لا يمكنها أن تكون الا امتدادا لحركات كان يأتى بها قديما . ما أبسط هذا !

(يشد ذراع جورج بعنف) .

لماذا جئت تحكى لى حكايتك علاوة عـــلى ما سبق ؟ لماذا جئت تقذف فى وجهى بعطفك ؟ لكى يكون الأمـــر أبسط مما أصبح عليه ، بلا شك ؟

(هوى جالسا على السرير ، مرهقا بشكل غريب) .

لقد كسبت .

چورچ : (مسلوب الخاطر) ولكن يا جاك ، لست أفهم لومك .. لقد جئت أحدثك هـــذا الحديث الأليم ، صدقنى ، لكى أشيع شيئا من الدفء ، بالعكس ، فى الوحدة التى لابد أحسستها حولك منذ أمس .

جاستون : هذه الوحدة لم تكن ألد أعدائى ..

چورچ : ربما فاجأت بعض نظرات الخدم ، وحرجا من حولك .لا يجب أن تعتقد مع ذلك أنه لم يكن يحبك أحد .. ان أمى ..

(ينظر اليه جاستون ، فيضطرب) .

ثم ، على أي حال ، وبوجه خاص ، كنت أنا أخلص لك الحب .

جاستون : وفيما عداك ؟

چورج : طبعا ..

(يتحرج) ..

مهما يكن .. ثالثتين بلا شك .

جاستون : انها كانت متيمة بى ، وهذا شيء آخر .. ليس هناك سواك .

چورج : (يطأطىء رأسه) ربما ، نعم .

جاستون : ولماذا ؟ لقد استعصى علىّ أن أفهم لماذا .

چورج : (فى وداعة) ألم تحلم فى حياتك بصديق كان فى أول الأمر صبيا صغيرا تمسكه من يده وتخرج به الى النزهة ؟ أنت يا من تحب الصداقة ، تأمل مدى سعدها بصديق من الجدة بحيث يأخذ عنك سر حروف الهجاء الأولى ، وسر ضربات القدم الأولى وهو يركب الدراجة ، وسر حركات الذراعين الأولى ليسبح فى الماء . صديق من الضعف بحيث لا تنقضى حاجته اليك لكى تدافع عنه ..

جاستون : (بعد برهة) هل كنت صغيرا جدا عندما توفى والدك ؟

چورچ : كنت فى الثانية من عمرك .

جاستون : وأنت ؟

چورچ : فى الرابعة عشرة .. كان علىّ طبعا أن أعنى بك . فقد كنت صغيرا جدا .

(بعد برهة ، يقول له عذره الحقيقى) .

لقد كنت دائما صغيرا جدا بالنسبة لكل شىء . بالنسبة للمال الذى أعطيناك اياه قبل الأوان كالسفهاء ، بالنسبة لشـــدة أمى ، وبالنسبة لضعفى أنا أيضـــا ، بالنسبة لسوء تصرفى . هذه الكبرياء وهـــذا العنف اللذان كنت قد بدأت تصطرع ضدهما وأنت فى الثانية من عمرك ، انما كانا وحشين أنت منهما برىء ، وكان علينا نحن أن ننقذك منهما . اننا لم نعجز عن ذلك فحسب ، بل اتهمناك ؛ تركناك ترحل وحدك الى الميدان .. ببندقيتك ، وكيسك ، وعلبة قناعك الواقى ، ومحفظتيك الاثنتين ، لابد أنك كنت جنديا ضئيلا جدا على رصيف المحطة !

جاستون : (يهز كتفيه) أظن أن ذوى الشوارب الغليظة والوجوه الرهيبة كانوا هم أيضا جنودا ضئالا

جدا ، عندما حان أن يطلبوا منهم شيئا أكبر من قواهم ..

چورج : (يصيح ، ويكاد يتأوه) نعم ، ولكنك أنت كنت فى الثامنة عشرة ! وبعد أن تباهى الغزاة بلغاتهم الميتة وحياتهم المزخرفة بالنياشين ، كان أول شىء سيفرضه عليك الرجال هـو أن تنظف الخنادق بسكين المطبخ .

جاستون : (تند عنه ضحكة ناشزة) وماذا بعد ؟ ان ازجاء الموت يبدو لى بالنسبة للشاب طريقة ممتـازة لوصله بالحياة فى أول عهده بها .

رئيس الخدم : (يظهر) سيدتى الدوقة ترجو سيدى أن يتفضل باللحاق بها فى الصالون الكبير بمجرد أن يتم استعداده .

چورج : (نهض) انى أتركك . ولكن ، من فضلك ، على الرغم من كل ما قيل ، لا تسرف فى كرهه ، چاك هذا .. انى أظن أنه كان قبل كل شىء ولدا مسكينا .

(يخرج . يمكث رئيس الخدم مع جاستون ويساعده فى ارتداء ملابسه) .

جاستون : (يسأله فجأة) يا رئيس الخدم ؟

رئيس الخدم : سيدى ؟

جاستون : ألم تقتل فى حياتك شخصا ما ؟

رئيس الخدم : سيدى يريد أن يمزح بلا شك . سيدى يدرك جيدا أننى لو كنت قتلت شخصا ما لما بقيت فى خدمة سيدتى .

جاستون : ولا خلال الحرب ؟ فى لقاء فردى مباغت وأنت تقفز داخل مخبأ أثناء موجة الهجوم الثانية ؟

رئيس الخدم : لقد حاربت برتبة صول فى مهمات الملابس ، ويجب أن أقول لسيدى اننا فى وكالة المهمات لم تسنح لنا الفرص الكافية .

جاستون : (جامدا ، شاحبا جدا ، ووديعا جدا) ما أسعد حظك يا رئيس الخدم ! لأنه شعور رهيب أن تعكف على قتل انسان لكى تنجو بحياتك .

رئيس الخدم : (يتساءل أيجب عليه أن يضحك أم لا) سيدى يحسن التعبير . شعور رهيب ! لا سيما بالنسبة للمقتول .

جاستون : انك تخطىء يا رئيس الخدم . المسألة كلها مسألة خيال ، والمقتول فى أغلب الأحيان أقل خيالا من القاتل .

(برهـــة) .

وأحيانا لا يكون المقتول الا مجرد طيف فى حلم مر بالقاتل .

رئيس الخدم : فى هـــذه الحالة ، أظن أنه لا يتعذب كثيرا ، يا سيدى .

جاستون : ولكن القاتل ، على العكس ، يحظى بعـذاب الاثنين . هل تحب الحياة يا رئيس الخدم ؟

رئيس الخدم : مثل كل واحد يا سيدى .

جاستون : تصور أنك ، لكى تحتفظ بالحياة ، يجب عليك أن تغمر فى العدم الى الأبد شابا ، شابا فى الثامنة عشرة من عمره .. ولدا متكبرا ، ولدا دنيئا ، ولكنه مع ذلك .. ولد مسكين : لسوف تكون حـرا ، وتفوز بأعظم حـــرية يتمتع بهـــا انسان فى الدنيا ، ولكن لكى تغدو حرا ، يجب عليك أن تترك هـذه الجثة الصغيرة البريئة وراءك . فماذا تفعل ؟

رئيس الخدم : أعترف لسيدى بأننى لم أسأل نفسى هـذا السؤال . ولكن يجب أن أقول أيضا انه — اذا صدقت فى ذلك الروايات البوليسية — لا ينبغى قط أن يترك المرء الجثة وراءه .

جاستون : (فجأة ينطلق ضاحكا) ولكن اذا لم يكن هناك أحد يستطيع أن يرى الجثة فيما عدا القاتل ؟

(يذهب نحوه ويتلطف) .

انظر يا ريس . قد انتهى الأمر . والجثة هنا عند قدميك . هل تراها ؟

(ينظر رئيس الخدم الى قدميه ، ويثب وثبة الى جانبه ، وينظر حوله ثم يفر ، مذعوراً ، بأقصى سرعة يسمح بها الوقار . وتظهر قالنتين على الفور فى الممر . انها تجرى الى الغرفة) .

قالنتين : ما الخبر الذى حمله لى جورج ؟ ألم تقل لهم شيئا بعد ؟ أنا لم أشأ أن أكون أول الداخلين الى غرفتك هذا الصباح ، ولكنى كنت أعتقد أنهم لن يلبثوا حتى يزفوا الىّ نبأ طيبا . لماذا لم تقل لهم ؟

(جاستون ينظر اليها دون أن يقول شيئا)

اسمع ، لا تدفعنى للجنون ! أثر الجرح ، لقد رأيته أمس فى مرآة ، انى واثقة من هذا !

جاستون : (بوداعة ، دون أن يكف عن النظر اليها) لم أر أى أثر لجرح .

فالنتين : ماذا تقول ؟

جاستون : أقول اننى نظرت بانتباه شديد الى ظهرى ، واننى لم أر أى أثر لجرح . لابد أنك أخطأت

فالنتين : (تنظر اليه لحظة ، مذهولة ، ثم تفهم وتصيح فجأة) أوه ! انى أكرهك ! انى أكرهك ! ..

جاستون : (هادئا جدا) أظن أن هذا أفضل .

فالنتين : أو تدرك — مجرد ادراك — ما تقوم به الآن ؟

جاستون : نعم . انى أقوم الآن برفض ماضىّ وشخصياته — بما فيهم أنا . ربما كنتم أسرتى ، وغرامياتى، وقصتى الحقيقية . نعم ، ولكن هناك شىء ، وهو .. أنكم لا تعجبوننى : انى أرفضكم .

فالنتين : فانك مجنون ! انك وحش ! لا يستطيع الانسان أن يرفض ماضيه : لا يستطيع الانسان أن يرفض نفسه ...

جاستون : اننى بلا شك الانسان الوحيد ، حقا ، الذى وهبه القدر الفرصة السانحة لتحقيق ذلك الحلم الذى يراود كل انسان .. اننى رجـل ، وفى استطاعتى أن أكون ، اذا شئت ، جديدا جدة الطفل ! وهذا امتياز أرى من الاجرام ألا أنتفع

به . انى أرفضكم . ليس لدى منذ أمس — الذى لم أكد أقضيه بينكم — الا فيض من أشياء عنى ينبغى أن أنساها .

فالنتين : وحبى ، أنا ، ماذا تفعل به ؟ انه أيضا ، بلا شك ، مما لا تتوق الى معرفته .

جاستون : لست أرى منه ، فى هذه اللحظة ، الا البغض الذى يملأ عينيك .. وهذا بلا شك وجه من وجوه الحب لا يندهش له سوى مريض بفقد الذاكرة ! على كل حال ، انه مريح جدا . لا أريد أن أرى وجها غيره . انتى عاشق لا يعرف حب عشيقته — عاشق لا يتذكر القبلة الأولى ، ولا الدمعة الأولى — عاشق ليس أسير أية ذكرى ، وسوف ينسى كل شىء غدا . هذه أيضا فرصة نادرة .. انى أنتهزها .

فالنتين : واذا مضيت أعلن ، أنا ، فى كل مكان ، أننى أتعرف أثر ذلك الجرح ؟

جاستون : لقد واجهت هذا الفرض . من الناحية الغرامية : أعتقد أن فالنتين القديمة كانت خليقة بأن تفعل ذلك منذ وقت طويل ، وأن من العلائم التى

تجلب عزاء لا بأس به أنك أصبحت حذرة .. ومن الناحية القانونية : أنت زوجة أخى ، وتدعين أنك عشيقتى .. فأى محكمة يمكنها أن تقبل اتخاذ مثل ذلك القرار الخطير استنادا الى خلط مريب فى الفراش أنت وحدك تستطيعين التكلم عنه ؟

فالنتين : (شاحبة ، تضغط فكيها) حسنا . لك أن تتباهى . ولكن ، بصرف النظر عن كلامك الفارغ حول فقد ذاكرتك ، لا تعتقد أن سلوكك مما يستغرب صدوره عن رجل .. بل اننى متأكدة من أنك فى قرارة نفسك لابد فخور بحركتك . كم يروق لكبرياء الرجل أن يرفض امرأة انتظرته كل هذا الوقت الطويل ! ما دام الأمر كذلك ، أسألك أن تغفر لى ما سأسببه لك الآن من ألم ، فانك لا تعلم أنه كان لى — رغم كل شىء — عشاق آخرون منذ الحرب .

جاستون : (يبتسم) شكرا . هذا لا يؤلمنى ..

(فى الممر يظهر رئيس الخدم والوصيف . من اشاراتهما نفهم أنهما رأيا من الأفضل أن يكونا اثنين لمواجهة جاستون) .

الوصيف : (على الباب) جناب الدوقة ديبون — ديفور رجتنى أن أقول لسيدى أن يتعجل فيتفضل باللحاق بها فى أقرب فرصة فى الصالون الكبير ، لأن عائلات سيدى قد نفد صبرها .

(جاستون لم يتحرك ، يتوارى الخادمان)

ڤالنتين : (تنفجـــر ضـــاحكة) عائلاتك يا چاك ! آه ! يا له من تغفل ، انى أريد أن أضحك .. لأن هناك شيئا تنساه ، وهو أنك اذا رفضت أن تأتى معنا ، فسيجب عليك أن تذهب معها ، رضيت أم كرهت . سيجب أن تذهب لتنام فى فراش فقيدهم ، وأن تلبس ملابس فقيـدهم الداخلية ، ومركوبه القديم الذى احتفظوا به فى وفاء وتقديس .. تلك الأسر قد نفد صبرها .. هيا ، تعال ، أنت يا من تخاف من ماضيك هذا الخوف ، تعال انظر الى رؤوس هؤلاء الناس المتوسطى الحال والفلاحين ، تعال واسأل نفسك أى أنواع لديهم من الماضى المليء بالحسابات الصغيرة والبخل يعرضونها عليك .

جاستون : من المتعـذر عليهم قطعا ، مهما حاولوا ، أن يعرضوا أحسن مما تعرضين .

فالنتين : أتظن ؟ تلك الخمسمائة ألف فرنك التى جاءت عن طريق النصب وأنفقت فى اللهو والعربدة قد تبدو لك شيئا تافها حقا بجانب ما هناك من مشاحنات على شبر من الأرض ، وتقتير لادخار الملاليم . هيا ، تعال ، ما دمت لا تريدنا ، فانك مدين بنفسك الآن للأسر الأخرى .

(تريد أن تجره ، فيقاوم) .

لا ، لن أذهب .

فالنتين : آه ؟ وماذا ستفعل ؟

جاستون : سأرحل .

فالنتين : الى أين ؟

جاستون : يا له من سؤال ! الى أى مكان .

چورچ : تلك اجابة شخص فقد الذاكرة . وأما نحن ، الذين احتفظنا بذاكرتنا ، فنعرف أن الانسان مضطر دائما الى أن يختار اتجاها معينـا فى المحطات ، وأنه لا ينتقل أبدا الى أبعد من المسافة التى يحددها ثمن تذكرته .. عليك أن تختار بين

القطار الذاهب الى « بلوا » أو القطار الذاهب الى « أورليان » . أى أنه اذا كانت لديك نقود ، ينفتح العالم أمامك ! ولكنك لا تملك مليما فى جيبك ، فماذا ستفعل ؟

جاستون : سأجبط تقديراتكم . سأسافر ماشيا ، عبر الحقول ، فى اتجاه « شاتودان » .

فالنتين : أتشعر أنك تتمتع بكل هذه الحرية منذ تخلصت منا ؟ انما أنت فى نظر الشرطة لست الا مجنونا هاربا من ملجأ . سوف يقبضون عليك .

جاستون : سأكون بعيدا . انى سريع المشى جدا .

فالنتين : (تصرخ فى وجهه) أتظن أننى لن أنذر بالخطر اذا خطوت خطوة واحدة خارج هذه الغرفة ؟

(ذهب فجأة الى النافذة) .

انك مضحك ، فالنافذة عالية جدا ، وليس هذا حلا .

(التفت نحوها كحيوان مطارد . تنظر اليه وتخاطبه برقة) .

ربما تخلصت منا ، ولكنك لن تتخلص من عادة نقل أفكارك واحدة بعد الأخرى الى عينيك ..

لا ، يا چاك ، حتى ولو قتلتنى لتكسب ساعة تنتهزها فى الفرار ، سوف تمسك .

(طأطأ رأسه ، وقد لاذ بركن من الغرفة) .

ثم ، انك تعلم حق العلم أننى لست أنا وحدى التى أطاردك وأريد استيقاءك . بل كل النساء ، وكل الرجال .. حتى الموتى ذوى السير الفاضلة ، ممن يحسنون فى الخفاء أنك تحاول الآن أن تتعدى على فضائلهم .. لا سبيل الى الفرار من جمهور بهذه الكثرة ، يا چاك . وسواء شئت أم لم تشأ ، سيجب عليك أن تنتمى الى شخص ما أو أن تعود الى ملجئك .

جاستون : (بصوت مكتوم) اذن سأعود الى ملجئى .

فالنتين : انك تنسى أننى كنت متعهدة الثياب طيلة يوم كامل ، فى ملجئك ! وأننى رأيتك تعزق الخس ربما فى جو الفلاحة الشاعرى ، ولكنى رأيتك أيضا تساعد فى تفريغ المباول وغسل الآنية ، بين شد وجذب من الممرضين الذين كنت تستجديهم قبصة دخان لغليونك .. انك تتكبر علينا ؛ تسىء خطابنا ، وتهزأ بنا ، ولكنك بدوتنا لست

الا ولدا صغيرا عاجزا لا حق له فى أن يخرج وحده ، وعليه أن يختبىء فى المراحيض لكى يدخن .

جاستون : (تصدر عنه حركة) اذهبى عنى الآن . لم يعد لدىّ أدنى أمل : لقد أديت دورك .

(خرجت دون أن تنطق بكلمة . جاستون بمكث وحده ، فيجيل نظرة مرهقة فى الغرفة ، ويقف أمام الخزانة ذات المرآة ، وينظر الى صورته مليا . فجأة يتناول شيئا مما على المائدة ، بجواره ، دون أن يحول بصره عن صورته ، وبأقصى عزمه يقذف به المرآة التى تتهشم وتهوى قطعا . ثم ينصرف فيجلس على السرير ، ورأسه فى راحتيه . صمت ، ثم يبدأ برفق عزف موسيقى ، حزينة فى أولها ، ثم تتحول شيئا فشيئا ، بالرغم من جاستون ، وبالرغم منا ، الى موسيقى مرحة . بعد انقضاء برهة ، يفتح غلام صغير قد ارتدى زى « كلية ايتون » باب غرفة الانتظار ، ويلقى نظرة استطلاع ، ثم يعيد اغلاق الباب بعناية ويسير فى الممر على طرف قدميه مستكشفا . يفتح كل باب يصادفه فى طريقه ، ويلقى نظرة مستفهمة داخل الحجرات . عندما يصل الى باب الغرفة ، يؤدى نفس الحركات . واذا به أمام جاستون ، الذى يرفع رأسه ، مندهشا من ظهور هذه الشخصية له .)

الغلام الصغير : أسألك العفو ، يا سيد . لعلك تستطيع أن ترشدنى . انى أبحث عن المكان الصغير .

جاستون : (يفيق من حلم) المكان الصغير ؟ أى مكان صغير ؟

الغلام الصغير : المكان الصغير الذى يستريح المرء فيه .

جاستون : (يفهم ، وينظر اليه ثم ، فجأة ، يطلق ضحكة طيبة ، لم يتعمدها) يا لها من مصادفة ! .. تصور أننى ، أنا أيضا ، أبحث عنه فى هـذه اللحظة ، المكان الصغير الذى يستريح المرء فيه ..

الغلام الصغير : فانى أتساءل اذن من الذى ينبغى أن نسأله الآن .

جاستون : (ما زال يضحك) انى أتساءل كذلك .

الغلام الصغير : على كل حال ، أنت اذا مكثت هنا ، لن تتاح لك فرص كثيرة لأن تجده .

(يلمح حطام المرآة) .

يا للهول ! أهو أنت الذى كسرت المرآة .

جاستون : نعم ، أنا .

الغلام الصغير : لذلك أنت شديد الضيق . ولكن ، صدقنى ،

من الأفضل لك أن تقول هذا بصراحة . انك سيد ، ولا يمكن ان يفعلوا بك شيئا خطيرا . ولكن أتدرى ، انهم يقولون ان هذا يجلب النحس .

جاستون : يقولون هذا ، نعم .

الغلام الصغير : (منصرفا) انى ذاهب لعلى ألقى فى الممرات خادما .. وبمجرد أن يدلنى ، سأعود لأشرح لك أين يوجد ..

(جاستون نظر اليه) .

.. المكان الصغير يبحث عنه كلانا .

جاستون : (يبتسم ويناديه) اسمع ، اسمع .. مكانك الصغير الذى يستريح المرء فيه ، عثورك عليه أسهل جدا من عثورى على مكانى . عندك هنا واحد منها ، فى الحمام .

الغلام الصغير : أشكرك جدا ، يا سيد .

(يدخل الحمام ، وتستأنف الموسيقى لحنها الصغير الساخر . يعود الغلام الصغير بعد انقضاء بضع ثوان . جاستون لم يتحرك .)

والآن يجب أن أعود الى الصالون . من هنا ؟

جاستون : نعم ، من هنا . أنت مع الأسر ؟

الغلام الصغير : نعم ، هناك كثير جدا من الناس ، من كل نوع ، جاءوا لكى يجربوا التعرف على مريض فقد الذاكرة فى الحرب .أنا أيضا أتيت لهذا . لقد تعجلنا السفر بالطيارة لأنه يظهر أن مؤامرة تجرى وراء ستار . أنا على أى حال لم أفهم بالضبط . يجب أن أستفسر من العم چوب . هل سبق لك أن ركبت الطيارة ؟

جاستون : من أى عائلة أنت ؟

الغلام الصغير : مادينسال .

جاستون : مادينسال .. آه ! نعم .. مادينسال ، الانجليز.. انى أرى الملف أمامى ، بوشوخ . درجة القرابة : عم .. بل اننى أنا الذى نسخت بطاقة الملف . أظن أن لدى آل مادينسال عما .

الغلام الصغير : نعم ، يا سيد ..

جاستون : العم چوب ، صحيح . طيب ، قل للعم چوب ، ان كان لى أن أقدم له نصيحة ، ألا يسرف فى الأمل بشأن ابن أخيه .

الغلام الصغير : لماذا تقول لى هذا ، يا سيد ؟

جاستون : لأن ابن الأخ المذكور لن يتاح له فى أكبر الظن أن يتعرف طول حياته شخصية العم چوب .

الغلام الصغير : ولكن ليس هناك ما يدعـو الى أن يتعرفه ، يا سيد . فليس العم چوب هو الذى يبحث عن ابن أخيه .

جاستون : آه ! أيوجد عم آخر باسم مادينسال ؟

الغلام الصغير : بكل تأكيد ، يا سيد . بل وانه شىء يثير بعض التعجب ، فى الواقع .. فالعم مادينسال هـو أنا .

جاستون : (مبهوتا) كيف يمكنك أن تكون ؟ تقصد أنه أبوك ؟

الغلام الصغير : لا ، لا ، أنا . بل انه من المحرج جدا ، كما ترى ، أن يكون غلام صغير عما لشخص كبير . لقد أمضيت وقتا طويلا على كل حال حتى فهمت الوضع واقتنعت به . ولكن جدى أنجب أولادا بعد أن تقدم فى السن جدا ، ومن هنا كان الأمر على هذا النحو . اننى مولود بعد ابن أخى بست وعشرين سنة .

جاستون : (ينطلق ضاحكا بصراحة ويجذبه على ركبتيه) اذن فأنت العم مادينسال ؟

الغلام الصغير : نعم ، انه أنا . ولكن لا يجب الاستهزاء ، فلا حيلة لى فى ذلك .

جاستون : ولكن فى هذه الحال ، ذلك العم چوب الذى كنت تتحدث عنه ..

الغلام الصغير : أوه ! انه من أصدقاء أبى القدماء ، وهو المحامى الذى يتولى جميع شئونى الخاصة بالتركة . ألا ترى أنه من الصعب علىّ رغم كل شىء أن أخاطبه بعبارة « يا أستاذ » ؟ لذلك أدعوه عمى چوب .

جاستون : ولكن كيف تصادف أن تصبح أنت وحدك ممثل عائلة مادينسال ؟

الغلام الصغير : كان هذا على اثر كارثة فظيعة . لعلك سمعت عن غرق الباخرة « نبتونيا » ؟

جاستون : نعم ، من زمن بعيد .

رئيس الخدم : فان أسرتى كلها كانت على ظهرها فى نزهة بحرية .

(جاستون ينظر اليه ، مسحورا) .

جاستون : اذن كل أقربائك قد ماتوا ؟

الغلام الصغير : (بلطف) أوه ! ولكن ، لا تجزع ، لا يجب أن تنظر الىّ هكذا . ليس الأمر محزنا الى هذه الدرجة . فقد كنت لا أزال طفلا صغيرا جدا عندما وقعت الكارثة .. والحق أنى لم أشعر حتى بوقوعها .

جاستون : (ينزله على الأرض ، ويتأمله ، ثم يضرب على كتفه) يا عمى مادينسال الصغير ، انك شخصية كبيرة دون أن تدرى !

الغلام الصغير : أتعلم أنى من الآن أتقن جدا لعب الكريكت ؟ وأنت ، هل تلعب ؟

جاستون : الذى لا أفهمه ، هو لماذا يحضر العم چوب من آخـــر انجلترا ليبحث عن ابن أخ لموكله الصغير . ابن أخ سوف يعقد له على الأرجح عمله ، فيما أتصور .

الغلام الصغير : أوه ! ذلك لأنك لا تعرف مسائل الوراثة . انها معقدة جدا ، ولكنى أظن أننى فهمت أننا ان لم نجد ابن أخينا هذا ، فان النصيب الأكبر من مالى سيفلت من بين أيدينا . وهذا يضايقنى

كثيرا لأن هناك ضمن التركة المذكورة بيتا جميلا جدا فى منطقة « ساسكس » به أفراس بديعة .. هل تحب ركوب الخيل ؟

جاستون : (فجأة حالما) على ذلك ، فالعم چوب لابد أن يكون مشتاقا جدا الى لقاء ابن أخيك ؟

الغلام الصغير : طبعا ! .. من أجلى .. ومن أجله . لأنه لم يعترف لى بذلك ، وانما قالت لى مربيتى ان له نسبة مئوية على جميع شئونى .

جاستون : آه ! طيب . وأى نوع من الرجال هو ، هذا العم چوب ؟

الغلام الصغير : سيد يميل الى البدانة ، شعره أبيض ..

جاستون : لا ، ليس هذا ما أقصد . على أى حال ، ذلك استعلام لا تستطيع أنت أن تجيبنى عنه . أين هو فى هذه اللحظة ؟

الغلام الصغير : انه يدخن غليونه فى الحديقة . فهو لم يرد أن يمكث فى الصالون للانتظار مع المنتظرين .

جاستون : حسنا . تستطيع أن تقودنى اليه ؟

الغلام الصغير : اذا شئت .

جاستون : (يدق الجرس . الى الوصيف الذى يدخل)

أرجوك أن تخطر الدوقة ديبون — ديفور بأن عندى خبرا هاما — أتسمع جيدا : خبرا هاما ؟ — يجب أن أفضى به اليها . فلتتكرم بالحضور الى هنا .

الوصيف : خبرا هاما ، حاضر ، سيدي يستطيع الاعتماد على .

(يخرج ، شديد الهياج ، وهو يتمتم) هاما .

جاستون : (يجذب الغلام الصغير نحو الباب المقابل) لنمر من هنا .

(عندما يصل الى الباب ، يتوقف ويسأله) ألا قل لى ، هل أنت متأكد جدا من أن أهلك جميعا قد ماتوا ؟

الغلام الصغير : جميعا . حتى أعز الأصدقاء الذين دعوهم بكامل هيئتهم الى هذه النزهة البحرية .

جاستون : عظيم .

(يفسح له الطريق ليمر أمامه ، ويخرج. تعود الموسيقى ، ساخرة . يظل المسرح خاليا لحظة ، ثم تدخل الدوقة ، يتبعها الوصيف) .

الدوقة : كيف هذا ؟ يريد أن يرانى ؟ فانه يعرف مع ذلك أننى فى انتظاره منذ ربع ساعة . قال لك : خيرا ؟

الوصيف : هاما .

الدوقة : (فى الغرفة الخالية) فأين هو ؟

(جاستون ، يتبعه العم چوب والغلام الصغير ، يدخل الغرفة بوقار الرسميات . تنبعث من الفرقة الموسيقية نغمة طرب مرتعشة أو ما يشبه ذلك .)

هوسپار : سيدتى الدوقة ، أقدم لك الأستاذ « پيكويك » وكيل أسرة مادينسال ، وها هو ذا ممثلها الوحيد . لقد أبلغنى الأستاذ « پيكويك » الآن شيئا يثير غاية العجب : فهو يدّعى أن ابن أخى موكله كان لديه ، على بعد سنتيمترين تحت عظمة الكتف اليسرى ، أثر جرح خفيف لم يكن يعرفه أحد . وقد كشف له عن ذلك أخيرا خطاب وجد مصادفة فى قلب كتاب .

پيكويك : خطاب أضعه على أى حال تحت تصرف سلطات الملجأ ، يا سيدتى ، منذ أعود الى انجلترا .

الدوقة : انما أثر هذا الجرح ، ياجاستون ، أنت لم تره أبدا ؟ ولم يره أحد أبدا ، أليس كذلك ؟

جاستون : لم يره أحد .

بيكويك : ولكنه من صغر الحجم ، يا سيدتى ، بحيث أظن أن أحدا لم ينتبه اليه حتى الآن .

جاستون : (خالعا سترته) ان التجربة سهلة . أتريدان أن تنظرا ؟

(يسحب قميصه . تتناول الدوقة منظارها اليدوى ، ويضع الأستاذ بيكويك نظارته الغليظة . وهو اذ يقدم لهما ظهره ، ينحنى نحو الغلام الصغير .)

الغلام الصغير : أرجو أن يكون لديك أثر ذلك الجرح . فسوف آسف اذا لم تكن أنت .

جاستون : لا تخف . انه أنا .. أصحيح اذن أنك لا تتذكر شيئا عن أهلك .. لا وجها واحدا ، ولا حكاية صغيرة ؟

الغلام الصغير : ولا حكاية . ولكن اذا كان هذا يضايقك ، ربما أتمكن من القيام بالاستفسار .

جاستون : لا تفعل شيئا من ذلك .

الدوقة : (التى كانت تنظر الى ظهره ، تصيح فجأة) ها هو ذا ! ها هو ذا ! آه ! يا الهى ، ها هو ذا !

بيكويك : (الذى كان يبحث أيضا) هذا صحيح ، ها هو ذا !

الدوقة : آه ! قبلنى يا جاستون .. يجب أن تقبلنى ، يا لها من مغامرة عجيبة .

بيكويك : (بلا ضحك) وغير منتظرة بالمرة ..

الدوقة : (تهوى جالسة) شيء رهيب ، سوف يغمى علىّ بلا شك !

جاستون : (ينهضها ، بابتسامة) لا أظن .

الدوقة : ولا أنا أيضا . سوف أخاطب بالأحرى « بوتتوبرون » بالتليفون . ولكن قل ، يا سيد مادينسال ، هناك شيء أتوق جدا الى معرفته : عند اجراء آخر خراج للتثبت ، جعلك صغيرى ألبير تقول « خنزير » فى هذيانك . فهل هذه كلمة تربطك الآن بحياتك السابقة ؟ ..

جاستون : صه ! لا ترددى هذا على مسمع أحد . انه هو الذى كنت أسميه بهذا الاسم .

الدوقة : (مرتاعة) أوه ! صغيرى ألبير !

(تتردد لحظة ، ثم تغير رأيها) .

ولكن هذا غير مهم ، انى أصفح عنك ..

(أستدارت نحو بيكويك ، مترددة) .

فهمت الآن ! انها كانت روح الفكاهة الانجليزية.

بيكويك : بعينها !

الدوقة : (تخطر لها الفكرة فجأة) ولكن ، بالنسبة

لآل رينو ، يا لها من ضربة فظيعة ! كيف نسوق اليهم الخبر ؟

جاستون : (فى جذل) انى أعهد اليك بذلك . فبعد خمس دقائق سأكون قد غادرت هذا البيت دون أن أراهم .

الدوقة : أليس لديك أية رسالة أبلغها لهم ؟

جاستون : لا . ليس عندى رسائل . بلى ، مع ذلك .. (يتردد) .

قولى لجورج رينو ان طيف أخيه الخفيف يرقد قطعا فى مكان ما داخل حفرة جماعية بألمانيا . وانه لم يكن فى حياته الا طفلا جديرا بكل مغفرة ، طفلا يستطيع أن يحبه الآن دون خوف من أن يقرأ شيئا قبيحا أبدا على وجهه اذا أصبح رجلا . تلك هى الرسالة . والآن ..

(يفتح البـــاب الى أقصاه ، ويومىء لهما بلطف نحو طريق الخروج . وما زال يضم اليه الغلام الصغير) .

دعينى وحدى مـــع أهلى . فعلينا أن نقابل بين ذكرياتنا ..

(تصدح الموسيقى بأنغـام النصر . تخرج الدوقة مع الأستاذ پيكويك .)

تسقط الستارة

روائع المسرح العالمى

صدر منها حتى الآن ٥٥ مسرحية

رقم العدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	الشقيقات الثلاث	أنطون تشيكوف
٢	أعمدة المجتمع	هنريك ابسن
٣	سيرانو دى برجراك	ادمون روستان
٤	مروحة ليدى وندرمير	أوسكار وايلد
٥	بنيلوبى	سمرست موم
٦	الغربان	هنرى بك
٧	اليكترا	جان جيرودو
٨	توركاريه	ا . ر . لوساج
٩	الدائرة	سمرست موم
١٠	شاترتون	الفرد ديفينى
١١	الأم	كارل تشابك
١٢	اللعبة الغادرة	جون جالزوردى
١٣	لعبة الحب والمصادفة	ماريفو
١٤	ست شخصيات تبحث عن مؤلف	لويجى بيراندللو
١٥	عربة اسمها الرغبة	تنسى وليامز
١٦	عزيزى بروتس	ج . م . بارى
١٧	رجل الله	جابرييل مارسل

رقم العدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١٨	هيدا جابلر	هنريك ابسن
١٩	سباق المشاعل	بول هارفييه
٢٠	كنوك	جول رومان
٢١	جوتو والطاووس	شين أوكاسى
٢٢	دون جوان	موليير
٢٣	بيت برناردا ألبا	فدريكو غرسيه لوركا
٢٤	القرد الكثيف الشعر	يوجين أونيل
٢٥	مأساة الدكتور فوستس	كريستوفر مارلو
٢٦	الأستاذ كلينوف	كارن برامسون
٢٧	ثورة الموتى	اروين شو
٢٨	ماتعرفه كل امرأة	أوسكار وايلد
٢٩	أهمية أن يكون الانسان جادا	جيمس بارى
٣٠	دائرة الطباشير القوقازية	برتولت برشت
٣١	منزل القلوب المحطمة	جورج برنارد شو
٣٢	القيثارة الحديدية	جوزيف أوكونور
٣٣	أفكار ضبيانية	نويل كوارد
٣٤	زوجة مستر تاتكرى الثانية	آرثر وينج بنيرو
٣٥	عندما نبعث نحن الموتى	هنريك ابسن
٣٦	لا وقت للفكاهة	س . ن . بيرمان
٣٧	سيجفريد	جان جيرودو
٣٨	علماء الطبيعة	فريدرش دورنمات
٣٩	رغبة تحت شجر الدردار	يوجين أونيل
٤٠	حورية البحر	هنريك ابسن
٤١	جزاء خدماتهم	سومرست موم

رقم العدد	اسم الكتاب	اسم المؤلف
٤٢	ايولف الصغير	هنريك ابسن
٤٣	بلياس وميليزاند	موريس ماترلنك
٤٤	الاله الكبير براون	يوجين اونيل
٤٥	حاملة المصباح	رجنالد بركلى
٤٦	آل باريت	رودلف بيزيبه
٤٧	الزفاف الدامى	فدريكو جرثيا لوركا
٤٨	الخاطبة	ثورنتن ويلدر
٤٩	اعرف نفسك	بول هرفيو
٥٠	الخصى	ترنتيوس أفير
٥١	فترة التوافق	تنيسى وليامز
٥٢	بيرجينت	چون جلزوردى
٥٣	الابن الأكبر	هنريك ابسن
٥٤	زيارة السيدة العجوز	فريدريش دورينمات
٥٥	ديدرى فتاة الأحزان	چون ميلنجتون سينج

ملتزم التوزيع فى الداخل والخارج مؤسسة الخانجى بالقاهرة

وتطلب من المكتبة القومية ٥ ميدان عرابى « القاهرة »

ومن مكتبة المثنى ببغداد ودار العلم للملايين ببيروت ٠